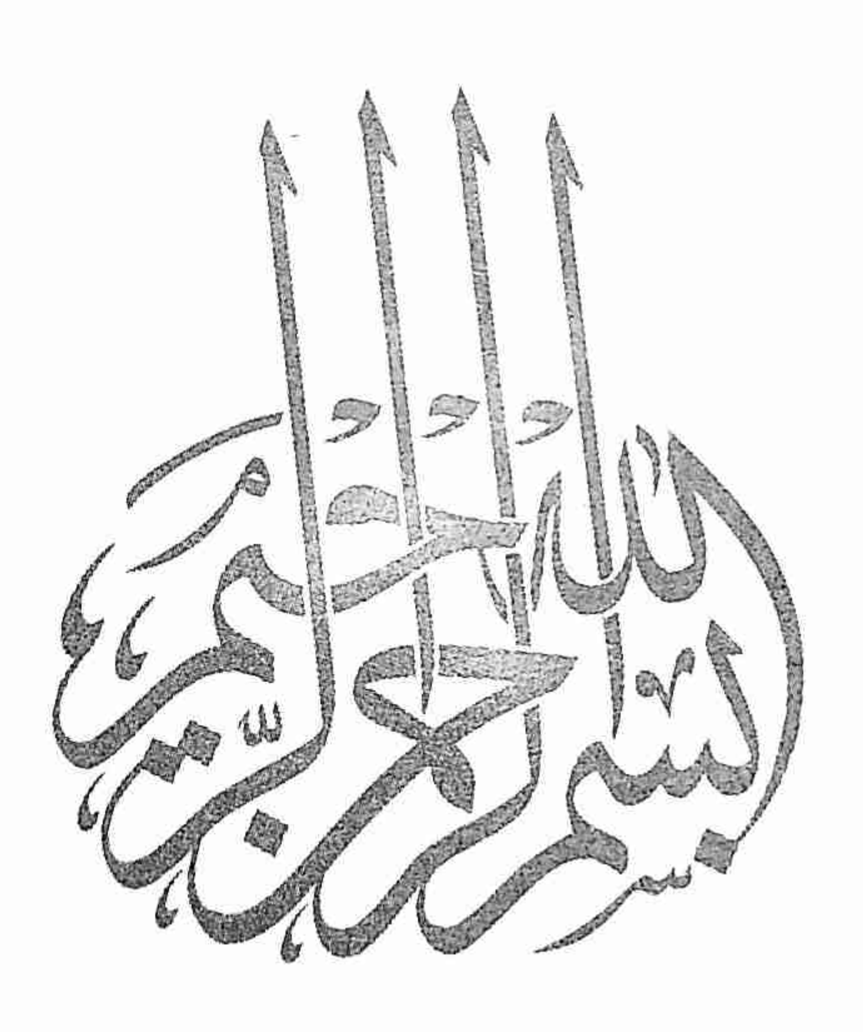


حائط المبكى

قصة الحرف الغريب

خالد بريه


بسم الله الرحمن الرحیم

خالد بريه

حَائِطُ المبكَى

قصةُ الحرفِ الغريب

تقديم

د. وليد عبد الماجد كسَّاب

الأديب سالم المهَيَّم



الكتاب: حَائِطُ المبكى

الكاتب: خالد بريه

* * *

الطبعة الأولى

1440 هـ/ 2019 م

الترقيم الدولي: 978-9938-908-19-0

* * *



فرع رادس: 1 نهج الحبيب ثامر - رادس - 2040

فرع تونس: 12 نهج السبخة - باب الجزيرة - 1000

الجمهورية التونسية

+216 25 001 495

+216 25 953 466

dar.maziri@gmail.com

Dar Alimem Almaziri

إهداء

إلى الإنسانِ المضرَّجِ بالخيبات،

والوطن المُختطَف في أقبيةِ الظلام..

إلى الكتاب.. الذي أنقذَني في لحظةٍ حرجة

إِذا رَأَيتَ الحديثَ مُصَدَّرًا بالأنا؛

فأنتَ المَعْنِي بذلك،

فأنا وأنتَ أركانُ المسْـرَحِ الفَسيح الذي تُقَامُ فيهِ فُصولُ الحِكَايَةِ!

فنحـنُ قِصَّـة مكْتَمِلـة، تَأْخُذُ أشـكَالاً مُخْتَلفَة، تَطَوَّعَ القَلَمُ بِتدْوِينِهَا؛ لِيَكُونَ لِسَـان الحالِ الذِي يَحْكِـي قصة الوَجَعِ الدائم!!

تقديم

خالد بريه وبهجةُ الحُزن

من الكلماتِ الخالدة التي حُفرت في الذاكرةِ ولا تبرحها ما كتبه الأستاذ علي الجارم في روايته البديعة (فارس بني حمدان): «إنَّ الحُزن حَرَمٌ قُدْسِيٌّ يجب أنْ تخشع أمامه الرؤوس بالصمت والإطراق»، ولذلك أراني أدهشُ كثيرًا لمن يحمله الوجع على الكتابة، وأغبطُ كل من استطاع أن يمتشقَ قلمه وسط الأحزان ليرقم أحاسيسه وسنحات فكره؛ لكني موقنٌ تمامًا بأنَّ الألم يُنتج أدبًا رفيعًا يهزُّ المشاعر هزًّا ويزلزل أركان الإنسان.. إنه لا يُؤلم الكاتب فقط؛ بل يتعدَّى ألمه إلى القارئ الذي يتماهى مع النصِّ ويعيش مفردات حزنه وأبجديات ألمه!

وصاحبُ هذا النصِّ الفاخر خالد بريه -الذي عرفته من خلالِ كلماته البديعة ورصفه الماتع- مؤمنٌ أشدَّ الإيمان بأنَّ «الآلام هي الباعث على إخراج المكنون»، وبأنَّ «الألم مدادُ الحياة والخلود»،



كما يوقن بأنَّ «اللحظات التي بكي فيها الإنسان كثيرة، لكن التي تبقى، تلك التي تترك أثرًا في تاريخه»؛ ولذلك نراه في هذا الكتاب -الذي اختار له هذا العنوان الصَّادم من وجهة نظري- يبثنا ألوانًا من أحزانه من مثل: الحزن على الوالد، والوالدة، والصديق، والبيت، والكتب.. ويشتد حزنه على وطنه الذي تناوشته الأيدي من الداخل والخارج حتى أضحى جحيمًا لا يُطاق، وصدق القائل: عندما يسقط كل شيء ينهض الأدب برأسه!

ومع بريه كل الحقِّ؛ فإنَّ وطنًا كاليمن لهو بلدٌ حقيقٌ بأنْ يُحزن عليه أشد الحزن، فقد عرف مفردات الحضارة منذ زمنٍ بعيدٍ، ثم تكالبت عليه قُوى الشر لتجعل منه بلدًا تابعًا يمشي في ركاب الآخرين؛ لكن ذلك لم يُقلِّل شيئًا من قيمة هذا الوطن الذي لا تزال آثاره العلمية والتاريخية شاهدةً على أصالته وعراقته.

إنَّ خالد بريه -وإن آلمنا وقع كلماته المونقة كثيرًا- فقد قدَّم صورةً صادقةً للأديب المنتمي الذي لا يعيش مترفِّعًا عن معاناة وطنه غارقًا في ملذاته، ولو أراد أديبنا النَّابهُ أن يقتات على الموائد لفعل؛ لكنه يؤمن برسالية الأدب وانتماء صاحبه، وهل كُتب الخلود لأعمال الكبار إلا لأنهم تماسُّوا مع الواقع المحيط بهم ففرحوا لفرحه وحزنوا لحزنه؟! وكم من أعمال طواها النسيان لأنها كُتبت بمبعدة عن المجتمع أو تسبيحًا بحمد الجلَّادين والمستبدين وانتصارًا لهم!



والأديب الحقُّ -كما أسلفنا- لا يمكنه أن ينعزل عن آلام المجتمع الذي يعيش فيه، وإن استطاع فإنه لا يمكن أن ينفصل بحالٍ من الأحوال عن آلام نفسه وأتراحها، فمثلًا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى وما تعرَّضت له البشرية من دمارٍ؛ آلم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ما آلت إليه أحوال الناس من جوع وفاقة ومرض؛ فأخرج كتابه (المساكين) سنة 1917، وهو الأمر الذي جعل أحمد زكي باشا يقول له: «لقد جعلتَ لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجوتة كما للألمان جوتة».

ولأنَّ الشيء بالشيء يُذكر؛ فإنني أذكرُ كم أبكتني كتابات المنفلوطي لا سيما أيقونته (العبرات)، لقد عشتُ مع كل كلمةٍ فيه، ولا أدري أكانت رغبةً حبيسةً في البكاء أصلًا، أم إنَّ المنفلوطي استطاع بصدق مشاعره أن يصل بي إلى هذه الدرجة من البكاء المتواصل الذي أفزع والدتي عندما دخلت عليَّ حجرتي، فلمَّا قصصتُ عليها القصة بَكَت هي الأخرى!!

إنَّ الكتابة وحدها هي القادرة على غسل أحزان بريه وإذهاب ما به من غمٍّ، لذا نراه يقول في مقطوعته الرائعة: «لقد باتتِ الحروفُ هي البلسمُ لجراحِنَا، إننا نقرأ لنعيشَ، ونكتبُ لنبقى أقوياء، تمنحني الكلماتُ وقودًا لإشعالِ جذوةٍ في ظلامٍ يأبى الرحيلَ، فرُبَّ كلماتٍ تُرصَّعُ بمدادِ القلبِ تكونُ أقوى من ضجيجِ الأيام.. هي وَحْدَها مَنْ تترجمُ ما يتلعثمُ به اللسانُ، هي وَحْدَها مَنْ تُفصحُ عن مكنونِ الحزنِ والألمِ والفقدِ والاشتياقِ.. هي الصراخُ



الصامتُ، هي البوحُ الذي يُخففُ عنا أعباءَ الحياة التي لم تَعُدْ كما كانت!! هي مَنْ تدكُّ جدرانَ الصدماتِ التي نتلقاها مِنَ الحياةِ وأبنائها.. فعندما تكتظُّ سماءُ قلبي بالبكاءِ، يتطوع القلمُ ليغسلَ ما تتركه الآلامُ فينا، فتعود إليه الروحُ الشاردةُ، فلا يوجد في العالم أسمى مِنْ دفعِ الآلامِ عن إنسانٍ لا يستطيعُ التعبير عن ألمه!».

والبعد الإنساني الذي يلفُّ أدب خالد بريه ليذكرنا بسُهمة الكبار الذين سخَّروا أقلامهم خدمة لدينهم وأُمَّتهم، فقد سار على دربهم ونسج على منوالهم، وهو بذلك يُقدِّم عملًا سيُعرف به ما دامت في الحياة بقية، ولستُ أبالغ؛ لأن لبريه شأنًا مع قرائه الذين أراهن على تضاعفهم متى رأى هذا الكتاب النور!

سعيدٌ بهذا الكتاب، وسعيدٌ ببريه، وسعيد بدار الإمام المازري وأخي الدكتور أنس رحموني الذي يتغيَّا الأدب الأصيل في وقتٍ عزّتَ فيه الأصالة، وصارت تجارة الكلمة سمة هذا العصر..

وحتى ألتقي مع بريه في أعمال أخرى أدعو القارئ الأصيل أن يُعير هذا الكتاب كل جوارحه؛ لأنه سيجد مادةً خصبةً تُغذِّي روحه وقلبه وتُشنِّف أُذُنه!

وليد كسَّاب

القاهرة – في 5 جمادى الآخرة 1439 هـ

21 فبراير 2018 م

تقديم

اللغةُ هي الدعامة الرَّئيسة للعَمَلِ الإِبداعي، وقد تُصبحُ لدى بعضِ المبدعين هي الغاية، فالعملُ الإبداعي أولًا وأخيرًا هو عَمَلٌ لُغَوي، ومن خلالِ قراءتي لهذا العَمَلِ الإبداعي؛ شَدَّتْني في المقامِ الأول لغته؛ فهي لغة تَدلُّ على تَمَكُّنِ صاحبها، وامتلاكه لزمامِ المبادرة، وقدرته على الغَوْصِ في أعماقها، وإخراجِ الدُّرَرِ واللآلئِ الكامنةِ فيها على حَدِّ تعبير حافظِ إبراهيم.

وهي ليست لغة متَقَعِّرة، أو مُتَكَلَّفَة، بل هي لغة صادرة عن امتلاك، وعشق، وخضوعٍ لجمالياتها، وهي لغة واضحة، وسهلة، ولكن ليست ركيكة ولا هجينة، ولا لغة تعتريها عُجْمَةَ الترجمة، أو التأثُّر بأساليبِ اللغَاتِ الأخرى، بل هي نابعةٌ من بيئتها، ومجتمعها، وثقافتها وإرثها الحضاري.

وقد بَهَرَتني التَّنَاصَّات التي تلوحُ بكثافةٍ لافتةٍ خاصَّة مع القرآنِ الكريم، وعلى الفورِ أيقنتُ أنَّ كتابنا الكريم جديرٌ بأن يكونَ المصدر الأول، والينبوع الذي لا ينضب لإبداعنا الأدبيِّ

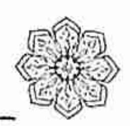


والنَّقدي والثقافي بوجهٍ عام، وفعلاً كانَ -كذلك- في فَجْرِ حضارتنا الأولى، فكلُّ الإبداع منذُ بدايةِ عصر التدوين تمحورَ حوله، في جميعِ الجوانبِ الحضارية.

ولكن ما يثيرُ الدَّهشَة، هو الوصولُ بسلاسةٍ وأمَانٍ إلى شواطئِ الإبداع، دونَ أدنى خسائر، من الصعب أن تنتقلَ من مدرسةِ «السَّلف» أو الماضَويَّة بما يسمها من انغلاقٍ وجمودٍ فكري، وادعاء لامتلاكِ الحقيقة، مع ما قد يزينها من «البَرَاءة»، كما وَصَفَ الكاتبُ ذلكَ في إحدى فقراته.. ولكنَّ الشخصية «الدينامية» المتحركة التي تحملُ بِذْرَةَ التساؤل، والتطلُّع، لا يقرُّ لها قرار، حتى تنتقلَ إلى عوالم النَّوافذ المفتوحة على الآخرِ القريب، والآخرِ البعيد، وأنَّ التَّدين الصحيح فيما أرى، لا يمنع الانفتاح على الإنسانية، والقبولِ بالاختلاف، والتَّباين؛ كبيئةٍ كونيةٍ، وعلى أهمية التَّلاقح والتَّعارف بينَ البشر، مع الحفاظِ على الكينونة، والذَّات بعيدًا عن الذَّوبانِ والضَّيَاع.

كنتُ سعيدًا بتردُّدِ أسماء أخرى إلى جوارِ الأسماءِ المذكورةِ سابقاً، كـ «خالد حسيني الأفغاني»، و«نجيب محفوظ»، و«طه حسين»، و«العقَّاد»، وسواهم من رموزِ الإبداعِ الإنشائي في سَائرِ أرجاءِ المعمورة؛ بما يدلُّ على الانفتاح.

ومما لفتَ نَظَري في هذه الكتاباتِ، امتزاج الأساليب، حيث ترى استخدام السَّرد المحدود، والحوار، والتَّأمُّل، والتَّحليل،



وهناكَ نوعٌ منَ المباشرةِ في طرحِ بعضِ الآراءِ والأفكار... ثمَّ هناكَ بعض الإلماح الذَّكي، هناكَ قَصٌّ وتأريخ، وتأمُّل، بوحٌ ذاتي، وهَمٌّ عام، التزامٌ وانفتاحٌ على حيوية البحث عن الحقيقةِ، وعدم الجمود في زاويةٍ واحدة. هذه القدرة على الانفلاتِ والتَّسَرُّب من أحاديةِ الرُّؤية وضيقِ الأفق... إلى عوالم الرَّحَابة والإنسانية.

هنيئًا لي هذا المبدع القَريب من وجداني ومكاني، نَوْرَسًا من نَوَارسِ الحلم الإبداعي في ثغرنا المكَمَّم، يضيفُ جديدًا لأفراحنا التي غابت عنَّا في الجدبِ المريع.

ولقد كان «محمد عايد الجابري، بغضِّ النَّظر عنِ النتائجِ التي آلت إليها دراسته، عن تكوينِ العقلِ العربي محقًّا في تمحورِ العقل البياني»، أو ما سَمَّاه في كتابه «بنية العقل العربي» البيان، أقول: تمحور هذا العقل بكلِّ تنويعاته حولَ النَّص الأول «القرآن»، لدى الأصوليين والفتيا ممثلة بالإمامِ الشَّافعي، ابتداءً من الرِّسالة والأم، بصفته المؤسِّس الأول للعقلِ البياني، وكذلكَ المعتزلة ممثلينَ بالجاحظ في البيَانِ والتَّبيين، بصفته المقَعِّد الأول لعلمِ البيان في الجانبِ الإبداعي.

قادني إلى هذا الاستطراد ما لمسته من تناص وتشرُّب وتشبُّع بالأسلوبِ القرآني، والمعجمِ القرآني إن صَحَّ القول، وليسَ معنى هذا، أنَّ لغةَ المبدع لغة تميل إلى الانغلاق أو الفَخَامة، بل كما قلتُ: هي لغةُ السَهْلِ الممتنع.



لغة تفيضُ حيوية وقوَّة وعذوبة، وفوقَ ذلكَ وقبله، هي لغة سليمة نحويًّا، ومن النَّادر أن تجدَ كاتبًا شابًا لا يخطئ في التَّركيب النَّحوي... الذي هو مدار البناء، بل أساس أي عملٍ، والذي أسماه شيخنا العظيم عبد القاهر الجرجاني «النَّظم».

لا شَكَّ من شعوركَ بالسَّعادة الغامرة حين تجد شابًا في بدايةِ مشواره الكتابي يمتلكُ لغةً رائعة، رائقة، وتزدادُ طَرَبًا وحبورًا حين تتأمل في مشواره التَّكويني، وكيفَ جَاءَ من عوالم أخرى قد تكون مغايرة للسَّائدِ والمألوف في هذا الزمن -عن المشتغلين بالعملِ الإبداعي- إلا في الرَّعيلِ الأول وفي بدايةِ عصْرِ النَّهضةِ الحديث... وقد يلحظُ هذا من خلالِ تعاطفه مع الزَّيَّات والمنفلوطي والرَّافعي ومحمود شاكر، و باكثير، وسواهم من مدرسة «تحت رايةِ القرآن» فهو آتٍ من محاضنِ الكتابِ الكريم.

وكتبه: سالم المُهَيَّمْ

الحديدة / في 5 ربيع أول 1439 هـ

21 يناير 2018م

حُروفي

أتَوكَّأُ عليها.. واهشُّ بها وجَعي؛
وليَ فيها مآربُ أخرى!



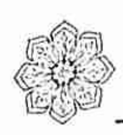
الإبداع والألم

مرتْ بي لحظات تقْطرُ ألمًا؛ ففررتُ منها للقراءةِ والقلم، ولا أذكرُ أني قرأتُ في حياتي أكثرَ مما قرأتُ في تلكَ الأيامِ القاسية، ولا أذكرُ أني كتبتُ أجملَ ممَّا كتبتُه في تلكَ الأيام.

ولقد اعتذرَ صديقي -مرةً- لعدمِ قدرته على الكتابةِ؛ بسببِ الأوجاعِ التي يمرُّ بها الوطنُ المنحدرِ إلى الهاوية، بسببِ الألمِ الذي يطوقه، الألم الذي شتَّتَ الحياةَ ولم يترك بها شيئًا جميلًا..

لكنني أعتقدُ أنَّ الآلامَ هي الباعثُ على إخراجِ المكنون، هي اليدُ التي تهزُّ جذعَ الخواطرِ فتُسقِطُ حروفًا مُلتهبة، هي الوقودُ الذي يُشعِلُ الإبداع المدفون في ركامِ النفس، وتحملُ القلمَ على البوح؛ ليقترنَ التاريخُ بالمسطورِ بزفرةِ الآلام، ودونكَ أعمالَ الكبارِ التي خلَّدها تاريخُ الأدب، شاهدة على ذلك!!

لهذا تجد أجمل قصيدةٍ كُتبت لرثاء، أو لفراقٍ أو رحيل، أو لمحاولةِ نسيانٍ، وأجملُ الرسائلِ التي خَطَّها الأديبُ تَأَوُّهَاتٌ



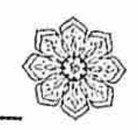
من فوهةِ الألم الذي يخترقُ قلبه المحترق، وأقوى الحروف وقعًا على النفس، تلكَ التي تُكتبُ في ظلمةِ السجون، من خلفِ قضبانِ الغياب؛ لأنها كُتبت بمدادِ الحرمانِ والشوق؛ والتوق إلى الحريةِ والخلاص؛ ليتملَّصَ صاحبها من ركامِ الأحزانِ الملتصقةِ به!

ولو عدتَ إلى تراثِ أديبٍ وفتَّشتَ فيه، لوجدتَ الجمالَ قابعًا في مواطنِ الألمِ الذي عاشه أو قامَ بتوصيفه، ولقد وقفتُ على ديوان شاعر، فما وجدتُ حرارة الحرف، وسطوة الكلمة إلا في قصائد الرثاء التي بكى فيها زوجته الراحلة.. أبياته تقطرُ ألمًا لرحيلها.. حقًّا؛ إنَّ الألم مدادُ الحياةِ والخلود، ووقودُ الإبداعِ الخالدِ المتشبثِ بذاكرةِ الجمال!

ولولا الحزنُ الذي اعتصرَ قلبَ (الخنساء)؛ لما نزفتْ رثاءَها الخالدَ في أخيها صخر.. ولولا الألمُ الذي طوَّقَ (عائشة التيمورية) لما كتبتْ قصيدتها الممتلئة بالحزنِ والأسى، ومرارةِ الفقْدِ على ابنتها الراحلة!

إنَّ الألمَ الذي صَاحَبَ (سَيِّد) هو الذي أخرجَ «أفراحَ الروح»! ولولاه لَمَا قرأنا «رسائلَ الأحزان» للرافعي. ولما سطَّر (السباعيُّ) وهو بينَ يدي الموت ما «علمتْه الحياة»!

فالألم الذي يصاحبُ الأديب يُصبغُ عليه ألوانًا منَ الأحزان، تُفضي به للهروبِ من ضجيجِ الأيامِ التي تُسْهِمُ في اتساعِ أوجاعه..



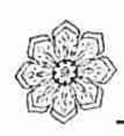
فيُحبَّبُ إليه الخلوة والاعتزال، فيصاحبُ القلم، ويسكبُ أحزانَه على الورق.

إنَّ الألَمَ المُعاش هو الذي يخطُّ في ناصيةِ الكتاب: (إننا لا نكتبُ بمدادِ القلم، ولكنَّنا نكتبُ بدمِ القلب، فعذرًا إن ظهرتْ آثارُ الجراحِ في سطورنا)، فجراحُ الأديب؛ هي مادةُ البقاءِ والخلود، تشعرُ بها، وتتركُ في قلبكَ آثارًا لجراحٍ أخرى لا دواءَ لها!

ولا زلتُ أتذكرُ -قبلَ سنواتٍ طويلةٍ مضت- أني كتبتُ تعليقًا في الصفحةِ الأخيرة من روايةِ «دموع على سفوحِ المجد» امتزجَ بدمعي؛ فقد تفنَّنَ الكاتبُ فنقلَ آلامه في بطنِ الكتاب، فكلما رجعتُ إلى التعليقِ رأيتُ حرارةَ الألمِ باديةً عليه!!

ولقد ارتقى (غوته) الألماني سماءَ الأدبِ برائعته «آلام فرتر»، وعاشَ الألم ذاته صاحبُ «الرسالةِ» الزيات، عندما ترجمها بلغةٍ حزينة، فأصبحتْ تقطرُ ألمًا، وبرزتْ فيها لوعةُ الغرام، ومقاساة نيرانِ الغيرة، ومحنةُ الوجْد، وعذاب الاشتياق.. وفي ذلكَ يقول: «إنَّ موضوع (فرتر) هو بعينه موضوع آلامي، فلمَ لا أنقله إلى العربية، لينطقَ بلساني، كما ترجم صادقًا عن ضميري.. كنتُ أقرأ، لا أقرأ في الحادثةِ سواي، وأشعرُ فلا أشعرُ إلا بهواي، وأندبُ ولا أندبُ إلا بَلْوَاي».

ومن قرأَ للمنفلوطي، أدركَ أنه أميرٌ من أمراءِ الألم؛ ولهذا استحقَّ الخلودَ في جبينِ تاريخِ الأدبِ العربي.



إنَّ السطورَ التي تُكتبُ في لحظاتِ الألم؛ هي تخفيفٌ من وطأةِ الحُزن، وتسليةٌ من كرْبٍ مُستَبِد، ونسيانٌ مُتعمَّد، وتوثيقٌ لحالةِ صفاءٍ للنفس، وإشراق للروح، ومحاولة للتحررِ من شرنقةِ الحزنِ المُمِضْ.. ومداواة لجراحٍ غائرة، كلُّ ذلكَ من خلالِ القلم، والقلم فحسْب!

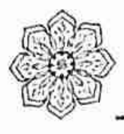
إنَّ الألمَ إذا اقتحمَ الأديبَ واستبدَّ به؛ أحالَه الأديبُ مادةً للدهشةِ والإبداع، فيتحولُ الألمُ لرياحٍ تحملُ الحياةَ لكلِّ مكانٍ تقعُ فيه، وتلكَ فلسفةُ الألمِ التي لا يتقنها إلا الأديب الذي اتخذَ من نزيفِ روحه، وأوجاعِ قلبه، ولوعةِ فؤاده قلمًا ينحتُ به الكلمات، فإذا بها تتنزَّلُ على وجدانِ القرَّاء دونَ استئذان، وتحطُّ على عقولهم لتثيرَ انفعالاتها، وتزيد من توهجها ومن قوةِ إشعاعها، وكأنَّه حينَ يكتبُ يعتصرُ قرائحَ السماء، ورحيق الملائكة مدادًا لكلماته الخالدة.



حائطُ المبكى

ولقد أمضيتُ ليلةً على رضْفِ الأحزان؛ فاستبدَّ بيَ الضيقُ، وحاصرتني الحيطان، وضاقَ بيَ المكان، فخنقتني عَبْرتي، وانسكبتْ في ثنايا وجهٍ شجيٍّ؛ فتشرَّبها الحائطُ الذي كنتُ أقفُ أمامه، فسكَنتْ نفسي، وذهبَ روْعي، وتخففتُ من أحمالي مُوْدِعًا إيَّاه، فكلَّما مررتُ عليه، أجدُ خيباتي، وأمنياتي المتخمة بالتشظي، وفي المنتصفِ تقبعُ ذكريات الفقد التي طوقتني بذاكرةٍ لا تذبل، ولا تعرفُ النسيان! وفي الركنِ الآخرِ منه، شيء من عجزٍ ملازمٍ لي، أودعْتُه في الحائطِ ومضيت!

إنَّ الأوراق التي نفرغُ فيها لهيبَ الأقلام؛ هي الحائطُ الذي نبكي فيه آلامنا المتشظية، وأشواقنا الملتهبة، وتفاصيل الوجعِ وأصوات النحيب، ورجع الصدى، وآمالنا المختبئة في تباريحِ الظلام.. وفي زواياه نبكي الراحلينَ عنا، من تدَثَّروا بالغياب، وآثروا البَيْنَ خلفَ جدرانِ النَأْي، أو تحتَ التراب!



وفي الحائطِ نبكي انتكاسة أمَّتِنا، ونطأطئُ الرأسَ خجلًا من الضعفِ الذي استوطننا، والهوان المُلتصقِ بنا، وأمامَ الحائطِ نقفُ بجزع، نقرأُ تراتيلَ الغيابِ على العدْلِ الذي لم يجد مقامًا بيننا، فتصرَّم!

إنَّ في كلِّ بقعةٍ من بقاعِ الحائط، أثرًا للألم، ورمزًا للأسى القابعِ في حياةِ أمتنا المُستباحة؛ فهنا طفولة تئنُّ ولم يُخطئْها الحرمان، وإنسانية تُبدَّد، وحرية تُوْأَدُ، وكرامة تُستَلَبُ، وظُلْمٌ مُمْعِنٌ في تحطيمنا، وفي الحائطِ قصة الحلم المقدَّس، التي نكتبها كل يوم، علَّ الحلمَ أن يكتمل، وتصبح للقصةِ معنى!

إنَّ حيطان المبكى لم تقتصرْ على الورق، فلقد باتت حياتنا كلها حوائط مبكى، فكلُّ محسوسٍ تطوَّعَ ليكونَ حائطًا، والباكونَ حوله كُثُر، حدَّ الخيباتِ التي مُنينا بها.

تصدَّعت كلُّ الحيطانِ التي تمنحنا الحياة، وهدمت فوق من كانوا حولها يلتمسونَ البقاء، فاختلطت بدماءِ الواقفينَ أمامها، وَأُهِيْلَ النسيانُ على الحوائطِ والدماءِ والحياة!

إنَّ الواقعَ حائطُ مبكى، والفضاء الواسع الذي نفرُّ إليه؛ تحوَّلَ لأكبرِ حائطٍ من حوائطِ المبكى.. ولو ألفيتَ نظرةً لرأيتَ الحوائطَ تحملُ الموت، والنعي، والرحيل، والحروب القذرة.. وبتنا بينَ الواقعِ والخيال نستلهمُ البقاءَ والحضور من حوائطِ المبكى التي نجدُ فيها الحضورَ والبقاء!



هَبْ لي أملا

ربِّ..

هَبْ لي أملًا ينتشلُني من كثبانِ الضياع، وظُلماتِ الهوى، وغياهبِ المجهول، وركامِ الفشل، ألوذُ به كلما أصابتني قسوةُ اليأس، ومسَّ الخوفُ والبَرْدُ ظهري، استيقظتُ من غفلتي السحيقة وأنا أتمتمُ بهذه الدعوات، حينها شَردَ ذهني متأملًا، يبحثُ في فوضى الكلماتِ عن معنى الحياة، قبلَ أن تنطفئ فيَّ مسالك النور، وأتوه في عتمة المكابدة، وشططِ الغياب.

جلستُ أتذكرني صغيرًا وأمي تسردُ أمنياتها لفلذةِ كبدها، أن أكونَ سفيرًا، طيارًا، طبيبًا.. وتفكَّرتُ في ما كنتُ أتمناه لنفسي؛ فشعرتُ أني على البابِ أقف، تلفحني رياحُ الفشل والتبلد.. أحسستُ ببعدِ الأمل بعدَ أن ارتضت ليَ الأقدارُ وضْعًا لم أكن أحلمُ به، فما كنتُ أحلمُ به وأهواه، أن أعيشَ في ساحةِ العلم والفكر، أشتمُّ رائحةَ الكتابِ، وأنهلُ من النورِ المنبعثِ منه،



فالنورُ يُلقي حباله للغارقينَ في الظلمةِ والتيه. لكني وجدتُ نفسي حبيسَ مكانٍ (مقدَّس)؛ لأنه ببساطةٍ يقيني حرَّ السؤال، ويجعلني من أصحابِ اليدِ العليا، في زمنِ الانحداراتِ الكبيرة، والتمادي في السفولِ المفزع.

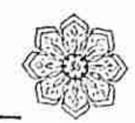
تلكَ اليقظة التي شعرتُ ببردِ راحتها تنسكبُ بين ضلوعي؛ جعلتني أتذكرُ أيامي التي أمضيتُ فيها ليالٍ أشقُّ فيها عُبابَ الليلِ المثقلِ بالسكون، إلى قبيلِ الفجر، قارئًا، كاتبًا، مُطَّلِعًا؛ فأصبحتْ من ذكرياتِ الماضي الجميل.

جعلتني أتذكرُ أيامًا قضيتها بصحبةِ من أزاحوا ما كنتُ أعانيه من تصحُّرٍ معرفي؛ لأرتعَ بعدها في جنانِ العلمِ والفكرِ والأدب.

كلُّ شيءٍ جميلٍ تذكرته من جرَّاءِ تلكَ اليقظةِ جعلني أرددُ بلا شعور: ربِّ.. هَبْ لي أملًا ينتشلُني من كثبانِ اليأس.

لم أكن استثناءً عظيمًا في هذه الدنيا، لكني لن أمرَّ عليها كغيمةٍ جافة، أعلمُ من نفسي أني لستُ ضعيفًا، وطموحي سقفه السماء، بيْدَ أنَّ الواقع -أحيانًا- يكونُ أقوى من الإرادة، وسقفه أعلى من سمائي، على الأقل هذا ما كنتُ أظنه في يومٍ ما.

سأظلُ أدعو الله أن يهَبَ لي أملًا وإرادة صلبة لا تهشمها تقلبات الأيام؛ لأني أكره العيش كَرسومِ الذارياتِ لا يُعرفُ لها شكلًا. سأصنعُ حياة ترقى لِأَنْ تُكتبَ في متنِ الكتابِ الذي لا هامشَ له.



لن أمل أدعو الله أن يهبَ لي أملًا؛ لأنهضَ من غفلتي، وركوني للدنيا، وابتعادي عن حياةِ العلم والأدب التي من لم يذقها فهو ميت، وإن رأيتَه بينَ الأحياء يمشي على قدمين.



الانتصارات الصغيرة

وجدتني أقفُ على حافةِ الانهيار، منذُ الظهور المفاجئ للغولِ المتوحش؛ المصنوعِ من غدرِ الأيامِ وظلامها. الوافدِ إلينا من جهةِ الكهوفِ البعيدة، كانت الأرض ترتجُّ مع كلِّ خطوةٍ من خطاه. ألقى أهلُ المدينةِ ما في أيديهم من أقلامٍ وأوراقٍ وخطابات وتفرقوا، دخلوا بيوتهم وأغلقوا على أنفسهم، وتكوَّموا معًا؛ يندبونَ بصمتٍ زمنَ الانتصاراتِ الكبيرة! وأنا، وحدي.. بتُّ انعكاسًا مشوَّهًا لصورتي السابقة، أحملُ شيئًا من ملامحي وكثيرًا من الشقاء!

منذُ الوهلةِ الأولى التي أحسستُ فيها أني أفقدُ انتصاراتي الكبيرة، أصبحتُ شريدًا، أمارسُ مهنةَ التسكُّع في أرصفةِ التائهين!

لم أعد أجدُ لذَّة الانتصار، منذ تسلَّطَ الغُوْلُ علينا، لقد باتَ يضربنا بسياطه المفزعة، ويفتتُ انتصاراتنا، كانَ يهدمها، ويهدمنا، لقد أحالَ الأحلام لركنٍ مهملٍ في متحفِ الخراب، وألقى علينا



رصاصة الغياب؛ فتهشَّم زجاج قلبي، وباتَ عُرضةً للإصابةِ بأمراضٍ مزمنةٍ، تدخلُ خلسةً من تشققاتهِ الفاضحة.

أستشعرُ شيئًا عميقًا بداخلي يجذبني للجنون، بحجةِ الخلاص، يشدُّني مثل تيارٍ بحري. أريدُ أن استسلمَ له، أن أتركه يستولي عليَّ. أريدُ أن أتخلَّى عن هيئتي، وانتصاراتي، أن أنزلقَ من ذاتي، أن أتخلى عن كلِّ شيء، كما يطرح ثعبان جلده القديم؛ لتستقيم لي الحياة المعوجة!

كنتُ أَجِدُنِي أبحثُ عن انتصاراتٍ تنسيني انتصاراتي الكبرى التي شرعتُ في ممارستها وتحقيقها منذُ حلم، رحتُ أصرخُ بحدَّةٍ في وجوه الشحاذين، والباعة المتجولين، ومن يفترشونَ الألمَ في زوايا القبو الكبير.. وأركلُ القططَ بقدميَّ المنهكتين، وأدوسُ على النمل بعنفوانِ الفاتحين، وأعظمُ انتصاراتي؛ تلكَ التي كنتُ أخوضها في المنزلِ مع القريبينَ مني،أفرغُ طاقة انتصاراتي المكبوتة في نفسي؛ لَعَلِّي أجدُ بردَ الرضا، ولَعَلِّي أخففُ وطأة الغربة القاتمة في قلبي.. ولذة الانتصار!

اشتدَّ انسحابُ الأيام، وباتت انتصاراتي الكبيرة شيئًا من الماضي، وممارستي لانتصاراتٍ صغيرة تفقدني محيطي الذي أحيا فيه.. وكانَ لزامًا أن أجدَ بقعةً أمارسُ فيها انتصاراتي دونَ هدمٍ لنفوسٍ تخافُ عليَّ من شبحِ الجنون الذي بدأَ يحومُ حولي.

في صباحاتِ أحدِ الأيام -وبمحضِ الصدفة- وجدتني أفتحُ



هاتفي الصغير، أمارسُ مهنةَ العبثِ والتطفل، وجدتُ أيقونةَ الألعاب، قادني الفضولُ إليها، فوجدتُ المكانَ الذي انتصرُ فيه لانتصاراتي الممعنةِ في الاحتضار.

مضت بي الأيام في سكون، منذُ اللحظةِ الأولى لاكتشافي العظيم، أمارسُ في كلِّ ساعات يومي البحث عن الكنزِ المختبئ في ركامِ الألغام، في لعبة هاتفي العتيق، وعندما أعثرُ عليه بعدَ معارك ضارية، تظهر في جبينِ الشاشة الصغيرة، مباركٌ عليك (انتصاركَ الكبير)..!!

من ابتكر هذه اللعبة التي نجدُ فيها ذواتنا المتلاشية؛ كأنه يعلمُ بالخيباتِ والانهيارات التي نحياها، أحالنا لانتصاراتٍ تغنينا قليلًا عن انتصاراتٍ أخرى، ندفنُ رؤوسنا في الشاشةِ المعتمة في إحدى زوايا المنزل، أو على الرصيف المهشَّم المخصص للتائهينَ مثلي! ونحنُ دونَ كللٍ نبحثُ عن الكنزِ المُوصلِ لانتصاراتٍ تبقينا على قيد الأمل! فَأَنْ نحيا بانتصاراتٍ صغيرةٍ أفضل بكثيرٍ من (اللاانتصار)؛ قلتُ لنفسي!



العَتْمَة تتَّسِع

العَتْمَة تَتَّسِعُ!

وزحْفُ المَوْتِ لَا يَتَوَقَّفُ،

الأَنْظَارُ شَاخِصَة فِي شُرُود،

«لَمْ تعُد ترَى شَيْئًا؛ وَلَا مَنْ مَرَّ أو اِسْتَقَرَّ»، غيْرَ أَنَّ العَتْمَة تَتَّسِعُ!

وَالطِّفلُ يبْكِي،

وَحُلم المَرْأَة تَهَشَّم،

وَالشَّيخُ يَحنُّ لِلرَّحِيل،

وَالشَّبَابُ فِي ألمٍ وتِيْهٍ؛

فَوُضُوحُ الأَسَى، يُؤَرِّقُ ضَبَاب أَحْلَامِهِم،

وَصَرْخَةُ الخَرَابِ قضَت عَلَى مَا تَبقَّى مِنهَا!

العَتْمَةُ تَتَّسِعُ

وَبُقعَةُ النُّورِ تَضيق

وَالحَيَاةُ فِي غِيَابٍ، وَتُمْعِنُ فِي الغِيَابِ،

وَالسَّمَاءُ تُمْطِرُ أَحْزَانًا. أَلْوَانًا وَأَلْوَانًا،

قَطَرَاتُهَا تَلِدُ أُخرَى، «جِرَارٌ تَنْكَسِر، وَلَا مَاءَ يَنْسَكِب»، فَلَيْسَ ثَمَّةَ مَاء، لَيْسَ إِلَّا الأَلَم!

وَالأَرْضُ لَمْ تَعُدْ مَهْدًا، مَحْضَ خَرَابٍ،

وَأَنَا وَأَنْتَ فِي غِيَابٍ..

وَهُمْ فِي حُضُورٍ دَائِم،

يَأْكُلُونَ باسمنا

يَتَحَدَّثُونَ باسمنا

فَتَتَّسِعُ أَحْلَامُهُمْ، وأَبْدَانُهُمْ،وَنَحْنُ نَتَلَاشَى، وَالعَتْمَةُ تَتَّسِعُ!!

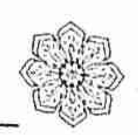
يُدَمِّرُونَ مِنْ أَجلِنَا. ويَقتُلونَ مِنْ أَجْلِنَا.

وَيُشِيدُونَ القصور والقُضْبَانَ مِنْ أَجْلِنَا.

وَمِنْ أَجْلِنَا نَمُوتُ، وَتَتَعَفَّنُ أَحْلَامنَا فِي ثَلَّاجَةِ المَوْتَى التي لَا شَيْءَ فِيهَا سِوَاه!!

العَتْمَةُ تَتَّسِع! وَخِطاباتهمْ لا تنتهي،

يَصمُتُونَ عِنْدَ كُلِّ فاصِلَةٍ بَيْنَ جُمْلَتَيْنِ، وَيَسْتَفْتِحُونَ:



(شَعْبنَا العَظِيم)؟! وَعِنْدَ اِنْتِهاءِ الحَدِيثِ، يَغْرِزُونَ نُقْطَةَ النِّهَايَةِ عِنْدَ (شعبنا العَظِيم)؟!؛ فينامونَ فِي هَنَاءٍ، وَيُسْحَقُ (الشَّعْبُ العَظِيم) دُونَ ذِكْرٍ أَوْ عَزَاءٍ!!

تَمَّ الخَطَّابُ، وَأَنْفَضَّ السامر، وَمَضَى المَوْتُ يَبْحَثُ عَنْ حَيَاةٍ، وَلَا زَالَت العَتْمَةُ تَتَّسِعُ!

نَغْرَقُ، وَنَتَمَسَّكُ بِقَشَّةٍ تُبْقينا فِي سِجِلِّ الحَيَاةِ، وَعِنْدَ بَدْءِ اِقْتِرَابِ مَوْسِمِ الذِّكَرى لِلغَرَقِ العَظِيمِ؛ نَجْمَعُ الشَّعْبَ العَظِيمَ، وَنَحْتَفِلُ بِقُوَّةِ الإِرَادَةِ عَلَى تَحَمُّلِ الغرَقِ، وَالمَوْت، وَالغِيَاب، وشبه الغِيَاب، وَانْعِدَام النُّورِ، وَانْعِدَام الحَيَاةِ، وَتَفَشِّي الجُنُون، وَاتِّسَاع سَاح الخَرَاب!

وَلَا زِلْنَا نَعِيشُ بِلَا مَلَامِح، وَلَا زَالَت العَتْمَةُ تَتَّسِع!



لحْظة بكيت

لا تزالُ ذاكرتي تحتفظُ بلحظاتٍ حزينةٍ بكيتُ فيها بكاءً مُمِضًّا، أبى النسيانُ أن يُسدلَ عليها شيئًا من أستاره الكثيفة..

لعلَّ أقواها على الحضور: تلكَ اللحظةَ التي انتقلتُ فيها من عالمي إلى فراغٍ كبير، هَالَني اتساعُه، لَعَلِّي صرختُ حينها بسببِ الموت الذي انتقلتُ إليه بمسمى الحياة، أو لَعَلِّي بكيتُ خوفًا منَ المجهول، أو لعلَّ بكائي تحية الإنسان القادمِ لدنيا الكَبَدِ!

وبكيتُ مرة بحرارةٍ بالغة، عندما لفحني لهيبُ الإهانةِ من مُدَرِّسٍ يعرفُ كل شيءٍ إلا التربية، ويملكُ كل شيءٍ إلا حُسْن الخلق، وما زلتُ أتذكرُ جيدًا أنَّ مُعلمةً عظيمةً أحسَّت بألمي فواستْني، لا زلتُ أشعرُ بالدفءِ كلما مرت بخاطري؛ فقد أزاحتْ شيئًا من حماقاتٍ أوجعتني.

وبكيتُ صديقًا لي غابَ عني في لحظاتٍ كان يسكنني، رحلَ غير مُودِّع، فاشتدَّ وجعي برحيله، فليلةُ الغروبِ تلك، كانت



بدايةً لحزنٍ دائمٍ حطَّ رحالَهُ في زاويةٍ من زوايا القلبِ الممتلئ بالحنين.

وبكيتُ ليلة رأيتُني أقفُ أمامَ الكعبة المُشرَّفة، وأنا لم أبلغ الحُلمَ بعد، كنتُ مندهشًا حدَّ الغياب، وفرحًا حدَّ البكاء، ففي تلكَ الليلةِ الموشاةِ بلذةِ الوصْل؛ شربتُ ماءَ اليقين، ووضعتُ قدمي في معراجِ المحبين، وبكيتُ بكاءَ الأولياء المقربين.. فكلما تذكرت تلك الليلة خفقَ قلبي؛ حبًا واشتياقًا لزيارةِ تلكَ البقاع التي تُسكبُ العبراتُ في رحابها.

وبكيتُ يومَ انشقَّ فمُ الزمانِ عن ريحانة قلبي «جاد»، ليلة وضعَ في يديّ جثةً هامدة بلا حِراك، في طريقي للمشفى، كنتُ أحملقُ فيه، أبحثُ فيه عن حياة، لكنه يأبى الرضوخَ لحياته الجديدة، كانَ كلُّ شيءٍ فيه مُضربًا عنِ الحياة، إلا شيئًا يسيرًا من هواء عمل كمبعوثٍ للصلحِ بينَ الموتِ والحياة، كانت تدورُ في رأسي آلافُ الخواطرِ والهواجسِ والأحاسيسِ المضطربةِ.. وكنتُ في جمودٍ كالأبله، لكنني في اللحظةِ التي أودعْتُه ليدِ القدر، وحيلَ بيني وبينه بباب، جلستُ على قارعةِ الطريقِ أبكي، لا زلت أذكرُ كم بكيتُ على طفليَ الأول، خشيةً عليه من الرحيل، لكنّ الله منحني إيَّاه، وباتت رؤيته شيئًا منَ الجنة التي يُتاحُ للإنسانِ دخولها في الدنيا.

ومن اللحظاتِ التي أبكتني، يوم علمتُ وحدي بمرض والدي



-عافاه الله-، كانَ حِملًا ثقيلًا وكنتُ أول العالِمِيْنَ؛ فبكيتُ؛ خوفًا وخشية وإشفاقًا.

وبكيتُ أيامًا ستأتي لا أعرفُ ملامحها، ستتشكل بسببِ الورقة البيضاء التي تحملُ قرارًا بالرحيل العاجل، وقد كان.

إنَّ اللحظاتِ التي يبكي فيها الإنسان كثيرة، لكن التي تبقى، تلكَ التي تتركُ أثرًا في تاريخه، وما ذكرته شيء من كثير...

فلقد بكيتُ على أوجاعِ أمتنا...

وبكيتُ يوم بكى الرجالُ سقوطَ أوطاننا المتتابعة..

فلا بأس إذًا أن نبكي، فليسَ ثَمَّةَ عيبٌ في البكاء..

خدعونا فقالوا: (الرجلُ لا يبكي)، بينما الحقيقة أنَّ من خرجَ باكيًا في لحظته الأولى، لا يرى في البكاءِ إلا جِبِلَّةً لا تدعُ صاحبها حتى يضعَ عصا الحياةِ عن كاهله.



عن الراحلِ الذي يسكُنني

مضتِ الأيام، وَأَفَلَ من كنتُ أحبُّ في ريعانِ توهجه، فجردتُ أَسَلَةَ القلم، ونقشتُ بعضَ كلماتٍ فاضَ بها المداد، وطاشَ بها الحرف، وعاشَ ربيعها الفؤاد، وأَنَّت لها الروح، ودمعتْ لذكراها العين، فهويتُ في محرابِ الفَقْدِ أندبُ الظلَّ الجميل الذي غادرني.

أخاطبه:

هل حقًا ما يُقال: «أن لن تعودَ أبدًا»؟

كيفَ طابَ لكَ أن ترحلَ عن عَالَمي؟!

أما كانَ عليكَ أن تتريثَ قليلًا؟!..

أما كانَ عليكَ أن تُودِّعَني قبلَ الرحيل؟!..

أليسَ من المحبةِ أن تفعلَ ذلك؟!

بلا شعورٍ، أهتف:

أينَ ذهبت؟!

إلى أينَ مضيت؟!

أيُّ أرضٍ ضمَّتْكَ، وأيُّ سماءٍ ارتوت من النظرِ إليك؟!

فَمُذْ غِبْتَ عني وصورتكَ لا تفارقني.. تأبى الرحيل، تتشبثُ بالبقاءِ كحقٍ يأنفُ الاستسلام.

أذكركَ عندَ شاطئِ البحرِ، وقبيلَ الغروبِ..

أذكركَ عندَ سماعِ النشيد.. وعندَ ضحكاتِ طفلٍ بريء..

أذكركَ عندَ منارةِ المسجدِ العتيق التي تُطلُّ على الحي كشيخٍ مُسنٍّ عَرَكَتْهُ السنون..

تمنيتُ لو أنَّ لكَ قبرًا يُزار..

لذرفتُ عليه الدموع، وبللتُه في خشوع، ومع ذلك ..

«ففي القلبِ تعيشُ الأرواح الحبيبة الخالدة التي لا تفنى، وفي القلب... تُحفَرُ القبور العزيزة التي لا تُنسى، لم أفقِدْكَ -أيها الحبيب- ولكني فَقدتُ نفسي».

طواني ليلُ فقْدكَ يا صديقي.

أتدري؟

لا أحبُّ أن أجلسَ عندَ شاطئِ البحر وحيدًا؛ لأنَّ الصخرة التي كنا نتربعُ فوقَ ظهرها، والأمواجُ التي تُحيينا بقطراتها المتناثرة، وضوءُ القمرِ الخافتِ الذي كان مُلْهِمًا لقصائدَ خُلقت فوقَ تلكَ



الصخرةِ المبتلة بالموج، والمحتفظة برائحتكَ الباقية، جميعهم يوجهونَ سهام سؤالهم إليَّ، مالنا نراكَ وحيدًا؟ أينَ صديقك؟!

أعتصمُ حينها بالصمت، ولا أجدُ ما أجيبُ به سوى الدمع.. فأعودُ خائبًا من حيثُ أتيت.

كلَّما طالَ رحيلكَ يزدادُ شوقي، تودعني فأشعرُ أنَّ العِبءَ ثقيلٌ بغيابك.

رحيلكَ يجعلني أُيمِّمُ بمشاعري حيثُ أنت.. ففراقُكَ تركَ أثرًا مُمِضًّا في نفسي، لا يزولُ إلا برؤيتك..

والحنينُ إليكَ استرجاعٌ للفصلِ الأجملِ في الحكاية، فكم أحِنُّ للقاءِ طيفٍ غادرني منذُ سنواتٍ دونَ وداع، كنتَ فصلًا جميلًا في حكايتي، لكنكَ قررتَ الرحيلَ قبلَ تمامها.

أشتاقُ لابتسامتكَ الصادقة التي لا تفارقُ محياك، لبساطتك، لصدقِ مشاعرك، لصفاءِ ظاهرك وباطنك.. فمتى ألقاكَ؟

أخشى ما أخشاه، أن تعودَ ولا تراني، إن عُدتَ، حينها تذكَّر أن ثمة من تمنى أن يراك، لكن الأقدارَ حالتْ دونَ ذلك! سنلتقي يومًا ما، طالَ ذلكَ أم بعُد..

فتهيأ لِلقَائي.



رحلَ وبقيَ الأثر

عندما كنتُ في المرحلةِ الابتدائية، أرادَ المعلمُ أن يقوي رابطةَ الأخوة، وأواصر المحبةِ بيننا نحنُ التلاميذ.. فاقترحَ أن يقدِّم كل طالب هدية لأي تلميذٍ آخر، شريطة، أن يذكرَ السبب الذي دعاه لاختياره من بينِ الطلاب!

في اليوم التالي قامَ مجموعة من الطلابِ بتقديم الهدايا، وفي زحمةِ النشاطِ الممتلئ بالجمالِ والمرح، تقدَّمَ أحدهم يحملُ هديةً بينَ يديه، ونادى باسمي على الملأ، قمتُ إليه مرتبكًا، فرحًا، جذلًا، صافحته وأنا في غايةِ الامتنانِ، شعرتُ في تلكَ اللحظاتِ أني من أهمِّ الأشخاصِ في هذا الكونِ الكبير.

أحسستُ ببْردِ هديته في قلبي، كانت بِضْعَ أقلامٍ، وألوان، لكنَّ أثرها في نفسي عظيمٌ عظيمٌ!! أخذتها مسرورًا واحتضنتها، لم أفكر بفضِّ غلافها، لم يكن يهمني، كنتُ منتشيًا بالقيمةِ التي تحملها، وصدق العطاءِ من ذلكَ الصديقِ المُحب، ففضُّ غلاف



الهدية وعرضها يحولها من قيمةٍ إنسانيةٍ (كيف) إلى ثمنٍ محدد (كم)، كما يقولُ المسيري.

عدتُ بهديتي إلى البيت، وكأني أحملُ بين يديَّ كلَّ مدَّخراتِ الدنيا، وقبلها كنتُ أسيرُ بزهوٍ ظاهرٍ،والتلاميذ يسترقونَ النظر إليها، ويقتلهم شغفُ الفضولِ لمعرفةِ ما بداخلها.

منذُ تلكَ الحادثة الجميلة، آختِ الهدية بيني وبينَ التلميذِ الذي لم أكن أعرفه من قبل.. تفرَّقنا في المرحلةِ الإعدادية، وظلَّ وهجُ الهديةِ يضيء الحياة بيننا، وبعد تخرجنا من المرحلةِ الثانوية، رحلَ صديقي في حادثٍ مروري خاطف، نقله لعَالَمٍ آخر مليءٍ بالهدايا والعطايا.

عندما سمعتُ خبر رحلته العلوية، برزت أمام عينيَّ تلكَ اللحظاتِ البريئة وهو يمنحني الهدية بين العشراتِ من التلاميذ، رحلَ صديقي وبقي أثر هديته في نفسي، ولا زلتُ أذكره في دعائي، ولا زالتْ تفيضُ عيني دمعة كلما ذكرتُ رحيله.



حسرات

لعلَّ البعضَ منا لا يشعرُ بالحسراتِ إلا في ذاكرةِ النمو المتأخرة.. فيتجاوزُ كثيرًا من الأحداثِ والمواقفِ التي كانت نقطة انطلاقة لحسراتٍ لا تنتهي..

أقواها أثرًا تلكَ الحسرات الأُوَلِ التي تنزلُ في نفسِ الإنسان، حين خروجه من عالمه الذي كانَ قانعًا به. تُتَرْجِمُ تلكَ الحسرة، صراخه الحزين الذي يَنِمُّ عن احتجاجٍ ظاهر لانتقالٍ لم يرغب فيه!..

ثم تتوالى الحسراتُ تباعًا، فيُفاجَأ بحسرةِ المنعِ والانقطاعِ، حينَ فطامه؛ فتلكَ حسرة تتنزَّلُ على قلبِ الطفل الصغير لا يشعرُ بها سواه.. فللطفولةِ متاعبها التي ينساها معظمُ الأطفال حينَ يكبرون، يتركونها ولا تتركهم!

ثم يصابُ بحسراتٍ تتفاوتُ بين القوةِ والضعف. وكلها عائدة إلى الحسراتِ التي تلقَّاها منذُ ابتدأت قصة الخروجِ الأولى..



حسرة الانتقالِ المفاجئ عن غير رغبةٍ ورضًا، كأمْرٍ قدري لا مفرَّ منه.. وحسرة الامتناعِ والفقدِ المتمثلةِ بالتقاعدِ المبكرِ عن ممارسةِ الرضاعِ.

وإنَّ من أعظمِ الحسراتِ التي تتنزَّلُ على الإنسانِ في ذاكرةِ الوعي الثاني بالحياة، هبوطُ حسرة «الرحيل» على الإنسانِ الذي يحملُ قلب طفلٍ لم تُخطئه الحسرات منذُ قدومه.. فعندما يرحلُ من كنَّا نعتقدُ يومًا أنَّ الغيابَ في حقه ضَرْبٌ من المحال، تتعرى الحياة وتتكشَّف، وتظهرُ حقيقتها.. يحسُّ حينها بلفحةِ الحرِّ وزمهرير البرد؛ لا عاصمَ له من ذلك..

تصيبه حسرة الرحيل تلك؛ بآثارٍ حادة تذكره بحسراتِ العهد الأول المدثرةِ بأجنحةِ النسيان.. تلك التي تركت فيه نُدُوبًا لا يراها، بل ولا يتذكرُّها؛ لكنها تكبرُ معه ويكبرُ معها.. حسرة الانتقالِ المفاجئِ من عَالَمِكَ ولمن تُحبُّ عن عَالَمكَ؛ وحسرة الفطام عن رؤيةِ من تحب.. كلاهما تنزلُ في قلبكَ فَتُحِيْلُهُ لمكانٍ متهاوٍ، تقبعُ فيه الحسرات..



شُعور

الأرواح إذا تلاقت، تهدَّمتْ أمامها الحدودُ والسدودُ والجدران. أقولُ هذا من واقعِ تجربةٍ عشتُها وأعيشها؛ ثمة أشخاص، أَلْقَى بهمُ القَدَرُ في عالمي عن طريقِ هذه الفضاءاتِ المتعددة، غابتِ الأجساد، والتقتِ الأرواح، آمنَ كل واحدٍ بالآخر من خلالِ كلمة، أو فكرة، أو موقف، أو أي شيء اتصفَ به أحدهما.

عندَ لقاءِ الأجساد، يُخيَّلُ لهم أنَّ اللقاءَ بينهم كانَ منذُ زمنٍ بعيد.

تهبطُ خيالات الأرواح التي حملها كل واحدٍ للآخر في تلكَ اللحظة، فيكتشفُ أنَّ الواقعَ أسمى وأعظم مما خبأته الأرواح واحتفظت به من صورةٍ لمن أحبت دونَ أن تراه..

بعدَ ذلكَ التوثيق المحكم للإخاءِ الإنساني، المعقود برابطة الفكر والقلم والاهتمام والشعور، تصبحُ العلاقة متينة متجاوزة عاملَ السنينِ والأيامِ، فربَّ أخٍ لكَ عرفتَه من أيامٍ أو شهور، أحبُّ إليكَ ممن جَمَعَتْ بينكَ وبينه السنينُ الطوالُ..



إنَّ السنينَ ذاتها، تخبركَ أنها كانت منذُ زمنٍ تحاولُ التقريبَ بينكما، كانت تُهَيِّءُ الظروفَ لذلك، ولهذا ما إنْ يحدث ذلك اللقاء حتى يبرز الدور الذي رسمته لكَ الأيام دونَ أن تشعر، فتسري فينا دماءُ الود، ونشعرُ بألفةِ من عاشَ معنا وعشنا معه منذُ زمن.

إنني أتقلَّبُ بحبِّ أشخاصٍ جادَت بهمُ الأيامُ منذُ فترةٍ يسيرة، يحملونَ لي حُبَّ السنين، ومكانة عالية عمرها كعُمْر الخليقة، يبذلونَ من راحتهم؛ لتشعرَ أنتَ بها، يبذلونَ كل شيء، كل شيء، تمتدُ إليه يدُ القدرة؛ لتكونَ في سعادةٍ تنعكسُ على أرواحهم الزاخرة بالحبِّ والوفاء والبذل والجمال. تَأْلَمُ فيخففونَ حِدَّته، تشعرُ بغربة مريرة فيحطمونَ الوحشة التي تحاصرك، تبكي فيهمسون: كلنا نبكي، فالبكاء صفاءٌ للنفس، نضحكُ فتزهرُ قلوبهم لسعادتنا، نُنجزُ فيطيرونَ فرحًا بإنجازٍ أُكَرَّمُ فيه أنا وحدي.

إنَّ الأرواح المتباعدة الأقطار، التي جمعت بينها فكرةُ الرسالة، باتت رابطةُ الأُخوة فيها أعظم من رابطة النسبِ، فذهبَ أحدهم يقول للآخر: خُذْ ما شئت، فما أخذتَ أحب إلي مما أبقيت، وحكى تاريخُ الجَمَال، أنَّ أحدهم شَرِبَ صاحبُهُ، فارتوى هو حدَّ الاكتفاء.

فالفكرة والشعور والاهتمام الواحد، تصنعُ الإنسانَ المُحِبَّ، الباذلَ، المؤمنَ بصدقِ الروحِ في شعورها نحو من أحبت.

في لحظة إخاء، يقولُ أحدُهُم للآخرِ: أقْسِمُ لكَ ما معي، أو أَسْتَدِيْنُ.. وكلاهما غريبٌ عنِ الوطن!!



عن عامٍ مَضى

عندما كنتُ في وداعِ العامِ الماضي، رسمتُ شيئًا من أهدافٍ طَمعتُ أن أحققها في العامِ القادمِ إلينا من رحمِ الأقدار..

لم يكنِ العامُ كما كنتُ أريد، فقد تحقَّقت بعضُ الأهدافِ التي كنتُ أنشدُها،وأخفقتُ في الكثيرِ منها، وأتيتُ بأخرى لم تكن في حسباني، ولم تتطرق إليها يدُ الأهدافِ المرسومة.

في العامِ المنصرم، أحرزتُ شيئًا من النجاح، وأخفقتُ في الكثير، عشتُ أيامًا هادئة في عزلةٍ وحدي إلا منَ الكتاب.. لكنَّ المتعة لم تَدُمْ، فتبعثرَ الجمالُ في نفسي؛ في اللحظةِ التي تركتُ خلفي مدينتي، مُوَدِّعًا، راحلًا عنها، فتلكَ مدينةٌ عليها السلام.

كانَ قرارُ العزلة أصحّ طريقٍ لتعميقِ الحياة وتنويعها، وتوسيعِ الأفق، والاعتمادِ على الذات، والابتعادِ عن موطنِ الإِلْفِ والجمودِ والركودِ، ففي العزلةِ المحبَّبَةِ لقلبي عُدْتُ لنفسي، وَكَسَرْتُ الصخرة التي تحولُ بيننا.. كانت صلتي بنفسي واسعة،

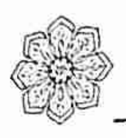
أَضْفَى عَلَيَّ ذلك إحساسًا بطعمِ الحياة.. ومهما كان هذا الطعم، فهو أفضلُ من لحظاتٍ تمرُّ بلا طعم.

في العامِ الماضي مُنيتُ بخسارةٍ في معركةِ الحياة -كما كنتُ أعتقد-، وهي لم تكنْ خسارة في حقيقتها، لكنني توهمتُ ذلك، بل كانت محنة في طياتها منحٌ شتى.. وكدتُ بسببها أن أخسرَ العديدَ ممن شيدتُ لهم في قلبي موطنًا.. ثم تتابعتِ الأيام والخَرْقُ يتسعُ.. حتى قررتُ أن أنهي عبثَ الهجران بقرارِ الوصْل واللقاء، ودفنِ الأوهامِ في مقبرةِ اللاعودة.. ليس ثَمَّةَ شيءٌ أعظم مِنَ التسامحِ وسلامةِ الصدرِ، قلتُ لنفسي -ولقد تعلَّمتُ درسًا بليغًا لا أنساه مدى العمر-: أنَّ الخلاف يتَّسعُ مع البُعدِ والهروب، والخوف من اللقاء، فحينها تتسعُ دائرة الأوهام، وتتورمُ المواقف، والإِمْعَانُ في إساءةِ الظن، وتحليل الأحداث بما يتوافق مع النفس تخفيفًا وترويحًا عنها.

امتلأ العام المنصرم بالكوارث، إضافة لكوارث سابقة.. وعاشَ موطني نصيبًا لا يُستهانُ به من كوارثِ الأيام، فكانَ عامًا شديدَ القسوةِ على الإنسانِ، الإنسانُ الذي لم تعد له أدنى قيمة في زمنِ اختلال ميزان القيمِ والمبادئ؟!!

انطوت صفحةُ هذا العام المنصرم، ولم تُسجَّلْ في أوطانِ العروبة غيرُ الأسى والألم، واتساع رقعة الأنين والضياع.

إنني -اللحظة- أقفُ مودعًا هذا العام المُنسل من متنِ الحياة،



متسائلًا عن قادمٍ يحملُ في جعبته الكثير، وما أرجوه: معرفة الطريق، وسلامة القلب، وأن لا ينقطعَ ماءُ اليقينِ عني، فتتصحر الحياة في قلبي، وأعيشُ في إمحالٍ وظلام.

في الأعوامِ القادمة، إياكَ أن تكونَ من صُنَّاعِ الموت، وممن يبذرونَ بذورَ الطغيانِ بشتى صوره.. كنْ شيئًا جميلًا، مفيدًا لنفسك، ولمن تَطَالُهُمْ يدُك، كنْ ذلكَ الذي يتحسَّسُ طريقه في الظلامِ والضوءِ المرتجف، يُنفقُ حياته في معركةِ الوعي، يقفُ مع الإنسان، ويشدو بالإنسان، ويرجو الخيرَ والسلامَ للإنسان.



فلسفة الرحيل

أقمتُ في منزلٍ بضْعَةَ أشهر، وعندما حانَ وقتُ الرحيلِ، أحسستُ أني أفقدُ موطني المفقود! فقد أصبحتُ مَدِينًا لكلِّ زاويةٍ من زواياه. وقد ساورني هذا الشعورُ أيضًا لحظةَ فررتُ من منزلي الذي يحتضنُ مكتبتي في مدينتي اليتيمة، كنتُ أهمسُ: والله إنك لأحبُّ مكانٍ إلي، ولولا أنَّ الظلامَ حالَ بيننا لما خرجت!

أعودُ للمنزل الذي غادرتُه بالأمس..

كنتُ أظنُّ أنَّ الأمرَ لا يعدو أن يكونَ مجردَ تبديلِ شيءٍ بشيءٍ أخر، لكنَّ الحزنَ الفطريَّ على فراقِ الشيء المرتبطِ به وجدانيًّا تشبَّثَ بي، فلقد رأيتُني أنقلُ أشيائي وكأني أسيرُ منكسرًا في جنازةِ عزيزٍ تخَطَّفَه الغيابُ.

وعندَ خروجي الأخيرِ منه.. تغيرت نظرتي لكلِّ شيءٍ فيه، رأيتني أتركُ ذكرياتي موزعةً على الأرففِ والمائدة، والأعمدةِ والجدران، سألتُ نفسي: ما هذا الذي يحدثُ لي؟!



إنه الحنين؛ المخلوقُ اللطيف في كيانِ الإنسان، يبثُّ أحزانه عندَ الرحيل -أيًّا كانت صورة الرحيل- فينتشرُ شذاه في الشعور، فتجده يحنُّ لأشياء قد لا يَأْبَهُ لها الكثير، فهو الجسرُ الممتدُ الذي يربطُ الأشياءَ بالقلب، فيخلقُ في النفسِ مثلَ هذا التوتر والحزن، والإحساس بالفقد، والزهد، والخوف من غياهبِ المجهولِ المبهمِ..

إنَّ الذي يفقدُ القدرةَ على الحنين، تتخشَبُ لديه اللحظات، والمواقف، والمكان والزمان، فلا فرقَ لديه بينَ اللقاءِ والفراق، وليسَ ثَمَّةَ فرقٌ بينَ الحياةِ والرحيل.. فهو بنيانٌ أصم، فَقَدَ متعة النظرِ بصورةٍ أخرى غيرَ التي يراها الآخرون.



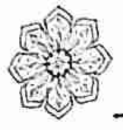
معركة

لم يكن ثَمَّةَ تخيل، رأيتني أقفُ على حقيقةِ حالي المنهكِ، أيقنتُ أني أتهيأُ لأمرٍ ما!!..

تمرُّ لحظاتٌ أشعرُ فيها بالتوجُّس مما أَلَمَّ بي؟!

يلفني لهيبُ الحُمَّى المشتعل، على الوقوفِ لم تعد تقوى قدماي، آلامٌ حادة تنخرُ في جسدي.. بدأتْ أنفاسي تضطرب، وبدأ جسدي يَنزُّ عَرَقًا، شعرتُ بالاختناق، وجدتني أقاوم، أحاولُ أن أطردَ الموتَ من رأسي، أن أتشبثَ بالحياة، كنتُ أُخَيِّلُ لنفسي أَنَّ شيئًا لم يحدث، لكنني غرقتُ في ضعفي ووجعي، أتلوى كملدوغٍ غريب، كنتُ كجريحٍ مثخنٍ في معركةٍ لا تنتهي، لا يُسمعُ فيها الصوت، كنتُ أبكي، أُنادِي، أَسْتَنْجِدُ، لكنَّ الحقيقة تبقى صامدةً في وجهي؛ على جبينها كلُّ ملامحِ الوحدةِ والفراقِ والغربة، وشرارةِ الألم..!

وانتصفَ الليل، وإذا بصراخِ الموت يدوي في أذني؛ فأرهفتُ



كل حواسي، بل أصبحت كُتلةً من الحواس، وانتابني ذعرٌ شديد، إنني أموتُ وحدي؟!! وما كانَ يُثقلُ كاهلي أَنْ أرحلَ في تلكَ الليلة دونَ رؤية مَنْ أُحِبُّ، كنتُ أشعرُ بالحزن أن أرحلَ دونَ وداع، ليسَ من المحبةِ والوفاء أن أفعلَ ذلك..!

صمتُّ عنِ البكاء، قررتُ أن أرحلَ بصمت، لِمَ الضجيج والعويل؟! لا أحدَ يمدُّ يَدَه نحوي، لا أجدُ قاربًا يحملني من دوامةِ الغرقِ، تلاشتْ كلُّ الأمنياتِ والأحلامِ، وتضاءلتْ فرصتي بالبقاءِ، وليس ثَمَّةَ مَنْ يشعرُ بي حينها، إلا مَنْ يسمعني دونَ بكاءٍ وعويلٍ، ودونَ ضجيجٍ ونحيبٍ.. فسلمتُ أمري، وأطلقتُ نفسي للرحيل، ولم أستطعْ حجْب دمعة فَرَّتْ مِنْ عيناي دونَ شعورٍ مني بعدَ قرارِ الصمت..

وفي لحظةٍ باتَ الكون كله أنا والله جلَّ جلاله، أنا شيء صغير قد استسلمَ لمصيره، وتعلَّق كل رجائه بالحقيقةِ الكبرى، بذي الفضل العظيم؛ فأضاءت في وجداني عين صارت ترى أشياء جديدة، أشياء لاتُجسَّدُ، بل أنوارًا تنتشرُ في أرجائي تمنحني أمنًا وسلامًا.

فأقبلَ النهارُ مرةً أخرى، يحملُ في جنباته مشاعل الأمل وأنوار الفرج، فتلاشت أمامها ظلمةُ الليلِ المُثقلةِ بالآلام، فعادتِ الحياة مرة أخرى بعد أن فقدتُ الأملَ بوصالها، فحمْدًا لِمَنْ يَسْمَعُ الأنين دونَ حاجةٍ لبكاء أو عويل ونحيب!! سأظلُ غارقًا في ضعفي، ممتننًا لقوتكَ وعطاءك، فامنحني قوة منك وعطاءً أحيا به في سبيلك.



ميلاد

قالوا لي: إنني عندما انشقَّ عني فمُ الحياة، كانَ والدي في سفرٍ بعيد، وكانت أمي في مرضٍ مُرهق، جَعَلَهَا تتمنى لو كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا، كنتُ ضَيْفًا ثقيلًا لامرأةٍ أمضَّها الوجعَ، ولهذا لم تحفل بي عندَ خروجي؟!

يقولونَ: إنها تمنت أن تَهَبَني لرجلٍ لا ولدَ له، أو تتداركني رحمةُ الموت فأعود مجددًا حيثُ كنت.. ولهذا لم تهتم بتسميتي.. ولم تحفل بذلكَ أيضًا..

يقولون: إن امرأة فقيرة كانت تتردَّدُ على المنزلِ للحاجةِ والسؤالِ، هي من سمَّمَتْني، كأنها رأت نيرَ الغربة التي لقيتها عند خروجي لدنياهم، فسدت فيَّ شيئًا من النقصِ وسمَّتْني خالدًا. وأنا الْمَنْسِيُّ في متنِ الكتابِ حينها.



أنا وأمي

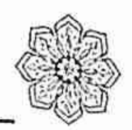
حدثني من أثقُ به، أني لم أكتف بالرضاعةِ حولينِ كاملين، وإنما أتممتُها خمسًا، وفي روايةٍ ستًا!!

ويقولونَ: إني كنتُ أحمِلُ اللبنَ، وأنادي أمي أن تعُبَّ منه، كي أتمكنَ من شُرْبِهِ بعدَ أن جفَّ الضرع، وضُربَ بيننا بجدارِ الفطامِ الغليظ..

إنني منذُ طفولتي مَدينٌ لِسَحْرِهَا الشريف، الذي شعرتُ فيه بدفءِ الأمان، فأبيتُ الانفكاكَ منه..

في منتصفِ الطفولة، كنتُ أسيرُ معها حيثُ سارت، استوحشُ بُعدَها، ولا أثقُ بأحدٍ سواها، كنتُ كقلادةٍ تشبثت بعنقِ صاحبها تأبى الفراق.

عندما كبرتُ، أبيتُ أن أبني مملكةً بعيدًا عن حِرَائِها، فجلستُ بقربها، أحتمي من سهامِ السنين، أتظللُ بظلالِ دعائها من حرِّ الأيام..



وامتلئ يقينًا كلما رأيتُ يديها الطاهرتينِ في علوٍ تستمطرُ العونَ والستر الجميل.

ولفضيلة القُربِ المبارك؛

باتت سفينتنا تمخرُ من شاطئٍ واحد،

وفي الضفةِ الأخرى من شاطئ الأمان، نبتسمُ؛ لأننا سويًا خُضْنا البحرَ بسلام.

في أيامٍ حالكةٍ عشتُها -فيما مضى- كنتُ لا أقوى على الحِراك، كانت أنفاسُها تُهدئ نارَ الحُمَّى التي طالَ حريقُها، وطوقتني بلهيبها، كانَ قربها يخففُ الألمَ الذي نزلَ بي، وجعلني لا أطمحُ بشيءٍ أكثرَ من عافيةٍ تُبقيني في سجلِّ الأحياء..

كان صديقي البعيد عن أمّه؛يغبطني لقربي مِنْ بُنْيَانِ الرحماتِ والهبات..

ولهذا، لطالما فرَّ إليها يجددُ الحياة برؤيتها، ويرتمي في أحضانها..

فما بينِ الحينِ والآخر، يشدُّ رحاله لزيارتها، يسدُّ بها فجواتٍ مُلْتَاعَةٌ لقلب مثخنٍ بالألم، تعيدُ إليه الحياة، تَهَبُ له شيئًا من عاطفةٍ وحبٍّ غَادَرَاهُ منذ رحيله عنها..

أما أنا فإني أحمدُ الله بعظيمِ المحامد؛ أن جعلني قريبًا من بقعةِ النور، أَنْ أمدَّ ليَّ الحولينِ أحوالًا عددًا بلا انقطاع، ارتشفُ

من رحيقها، وأحيا بأنفاسها، وأتخطى دروب الخيباتِ بدعائها، وتنسكبُ الألطاف في حياتي ببركتها.

ولا زالتْ تحملني معها كما كانت تحملني في مبتدئ الحياة.. إنني الصغيرُ الذي لم يكبر. إنني أدعو الله أن يرزقني برَّها، والتعلق بأستارها، والقرب منها..

إنَّ المرءَ لا يعرفُ ماذا تعني الأم، إلا في حفنةِ الرمالِ الأخيرة التي يهيلها حيثُ تغيبُ عن عينِ الأيام..

هناك، تتجلى حقيقتها المقدَّسة التي غبنا، وغيبتها عنا الأيام ومشاغلها.

«ولمَّا ذهبتِ الأمُّ، ذهبتِ الحقيقة التي كنا نقاتلُ الأيامَ عنها، وكانت هي وحدها تُرينا الحياة بمعناها إن جاءتنا الحياة فارغةً من المعنى، وكنا من أجلها نفهمُ الأيام على أنها مجاهدة البقاء، أما الآن فالحياة عندنا قتل الحياة».



أنا وهي

(1)

ذاتُ مساءٍ، وفي لحظةِ اشتياقٍ هادر، استدارَ قوسُ البدرِ مُعلنًا لحظةَ الاكتمال، فأشعلَ نضجُ البدرِ في تلكَ الليلةِ ذكراكِ، فامتلأتُ بكِ، ورأيتكِ حينها في كلِّ شيء وقعَ عليه ضياء البدرِ المكتمل!

وقررتُ -منذُ تلكَ الإفاقة- أن أكتبَ قصتكِ الخالدة في ضاحيةٍ من ضواحي القلبِ المثخنِ بالوجع؛ أخلِّدها في صحائفِ الفؤادِ والأوراق، وأصنعُ منها قبرًا يُزار، ومشهدًا تُشدُّ إليه الرحال، أمرُّ عليه كلَّما اكتملت صفحةُ البدر.. وشعرتُ بلهيبِ الوجْدِ، واعتراني داءُ الحنين، وهديرُ الشوق!

كتبتكِ قطعةً قطعةً، مضتْ سنينُ، وبضع لحظاتٍ وشوقٍ، وما زلتُ أكتبكِ، وما زالتْ قصتكِ طورَ الاكتمال.. ولا أدري متى أنتهي؟ لكنني ما أعلمه أنني لا أريدُ أن أنتهي!



(2)

في تلكَ الليلة حملتُ حبكِ معي، رافقتني أوجاعُكِ الساكنةُ في قلبي، شفائي منها يقعدني عن رؤيةِ الحياة، واشتعالُ الوجعِ يُحييني، حالةٌ من الهذيانِ لا تُعرفُ من خلالها ملامحُ العلةِ والبرء..

حيثما كانَ الحبُّ كانتِ الحياةُ والسلامُ والشفاءُ، نادى منادٍ من مكانٍ بعيدٍ.

(3)

ما إن تسلَّلَ الليلُ حتى أَخَذَتْ بقايا نفسها تبحثُ عن الحكيم.. على بابه تقفُ سائلةً:

قل لي بربكَ، ماذا نفعلُ إذا استبدَّ الهوى، وزادَ البُعدُ؟!

قال لها: الصبرُ والتصبرُ، والاستعانة بالمولى على النسيان.

قالت: وإِنْ أَبَيْنَا النسيانَ؟

قال: فالألمُ في صمت.

(4)

أبصرتُها، فتلاشتْ ظاهرةُ القمرِ العملاق. بتُّ بينَ عملاقينِ في البهاءِ والضياءِ، بيدَ أنَّ قمري يرفلُ بروحٍ تجعلُ منه ظاهرةً مستديمةً على مدى الأيام!



ولهذا رأيتُ القمرَ -الليلة- كرؤيتي له كلَّ يوم، فالصورةُ التي رآها الناسُ باتتْ بالنسبةِ لي في دائرةِ الإلْفِ، فلم يكنْ ثَمَّةَ استغرابٌ، ولم يكنْ ثَمَّةَ ما يدعوني للاندهاش، فإنني أبصرُ العملاقَ كل يومٍ حينَ أَتَلَصَّصُ وأَسْتَرِقُ النظرَ إليها.

(5)

استيقظتُ وقد تبللتِ المدينة، نزلَ المطرُ فجأةً فأحياها، فوجدتُني أشتمُّ رائحتكِ، أنتِ رائحةُ المَطرِ الباقيةِ بعدَ الغياب!



شيءٌ من حكايتنا

إنكِ لم تكوني تعلمين..

في اللحظةِ التي كنتُ أعبثُ فيها بقلمي وأوراقي، كُنْتِ شيئًا من الغيبِ الجميلِ، رسمتكِ حينها كما لو كنتِ أمامَ ناظري، دفنتكِ في قلبي، وخبأتكِ من وعثاءِ الأيامِ والسنين.

واحتفظتُ بكِ كمعجزةٍ ظهرت في بطنِ صفحةٍ بيضاءَ، تُشعُّ كما لو أَنَّ الشمسَ تنامُ مُفْرِدَةً جدائِلَهَا في أحشاءِ الكون، تَهَبُ الحياةَ للعابرين.

سارت بيَ الأعوامُ بطيئةً، وأرهقَني الانتظارُ، ومللتُ الجلوسَ على قارعةِ الأيام، أُحَمْلِقُ في المارِّينَ، أبحثُ عن طيفٍ جمعني به إلهامٌ عابر في ليلةٍ ما.. طالَ بيَ الأمدُ وأنا أحدقُ في الأفقِ ليلَ نهار؛ ألتمسُ الرؤية لهلالِ قلبي الغائبِ في سحائبِ القدر، حتى أعياني التحديق، فانطويتُ على نفسي على أملِ اللقاء، يَنُوشُنِي البردُ والحرمانُ، وتفزعني أسرابُ الراحلينَ.



إِنْ أَنْسَ، فلستُ أنسى تلكَ الليلة التي خرجتِ فيها من قلبِ الصفحةِ البيضاءِ، وانتصبتِ أمامَ قلبي ترفلينَ بُحسنٍ لم أَرَهُ منذُ غادرتُ الرسمَ على الورق!!

شاخَ فؤادي، وامتلأتُ يقينًا، فأخذتني رجفة طربَ لها قلبي من دهشةِ اللقاءِ المُنتَظرِ، وقلتُ: الحمدُ لله الذي صدقنا وعده.

ثم حانت مني التفاتةٌ لأناملي الممتلئةِ بالحب، وأوراقي التي تحتضنكِ منذُ قَدَرٍ، فابتسمتُ. ثمَّ أعدتُ النظرَ إليكِ بعيني قلبي، وابتسمتُ، ففي مثلِ هذه الليلةِ منذُ أعوامٍ مضت، كانَ لقاؤنا على الورق.



حكم الرحيل

في اللحظةِ المشؤومة التي وصلني فيها نبأُ رحيلكِ؛ حاولتُ أن أمنعَ عينيَّ البكاء، تمالكتُ قلبي، ورحتُ أبتسمُ ابتسامةً باهتة تَشِيْ بموتِ صاحبِها، همستُ في نفسي: الحياة أمور أخرى كثيرة غيرها، فعلامَ الحزنُ والوجع؟! تَظَاهَرْتُ بالقوةِ، باللامبالاة، جلمودُ صخرٍ يأبى الانحناء، لا يأبه بالراحلين، لا يكترثُ لهم، ولا يلتفتُ إليهم، يتشبثُ بالعنفوانِ والكبرياء..

كل ذلكَ كانَ ضعفًا أخذَ صورةً أخرى؛ احتيالُ ضعيفٍ هَدَّهُ الوُجْدُ، وشقَّ عليه حُكْمُ الرحيلِ، وَجَدَ نَفْسَهُ منفردًا، وحيدًا، يستلقي في وحْلِ الفراق، ويتجفَّفُ بهواءِ البُعد، وكثيرًا ما يعتريه الحزن، ويداعبه الجنون!

اذكرني بكلمةٍ عندَ قلبك !قالتْ: لي.

ماتَ القلبُ منذُ الليلةِ التي أودعْتِه في الجُبِّ وحيدًا، ينزفُ وحشةَ الخذلان، قلتُ لها.



زمردتي في الفضاء الأزرق

كانَ الليلُ قد أثقلَ على السماء، وبَدَتْ لي النجومُ وكأنها تجاهدُ كي ترفعَ ظلمتَه الكثيفةَ، فحاكيتُ النجومَ في جهادِها، فعندما تَلَبَّسَنِي اليأسُ منَ اللقاءِ بها؛ أقسمتُ أنْ أَجِدَهَا ولو تناثرَ العمرُ من طولِ المسيرِ، وأقطع في سبيلها مفازاتِ المستحيل.

فاهتديتُ إلى البحثِ عنها في الفضاءِ الأزرقِ الممتد، ملاذُ الفارينَ من نَيْرِ الواقعِ الملتهب، عَلَّنِي أن أحظى بمصادفةٍ جميلةٍ توصلني إليها بعدَ فَقْدٍ لم أحلمْ لحظةً بوقوعه.

بيد أنَّ الفضاءَ الواسعَ ضاقَ بي، وتهْتُ كما لو كنتُ أحبو بروحي في الأزقةِ حافيَ القدمينِ، وقد أخطأتُ الطريق.. أيقنتُ أنها تلاشت في كلِّ الفضاءات، واستحالتْ إلى طيفٍ وذكرى مؤرقةٍ، فقررتُ مرةً أخرى أن ألجمَ غريزةَ البحثِ عن القَمرِ المختبئ في أكفِّ القدر.

منذُ تلكَ الليلة، تعاظمتْ لديَّ حاسةُ النسيانِ.. أردتُ أن



أنسى أيَّ شيءٍ، كل شيء، وما ذاكَ إلا خوفًا من أن يقعَ قلبي على أثرٍ يُذكِّره بصفحةٍ تُطوى، ولازالت تقفُ مترنحةً على حافةِ الاحتضار. بعد مُضي ليالٍ وأيامٍ طِوال؛ قادني خيطُ القَدَرِ إليها.. وجدتني في صفحتها فجأةً، فاعتراني الصَمَمُ والخجلُ، كما لو كُنَّا نقفُ سويةً كأولِ مرةٍ عندَ سُور المدرسةِ العتيق.

وبتُّ أتلصَّصُ على صفحتها كلَّما لاحتْ ليَ الذكرى.. ولم تعد ذكراها تغادرني، فأدمنتُ المكوثَ هناك، وباتَ تَسَكُّعِي في زواياها هوايتي المفضلة.. كانت صفحتها مُمتنعةً علي، تستعصمُ بالبُعد عني، ولهذا صنعَ الحرمانُ لها وقعًا ثقيلًا في نفسي.. فاكتفيتُ منها بالنظرِ إلى أثرها المرسوم في حائطِ المبكى!

كنتُ أنظرُ إليها بعينِ ولْهان تعزَّى باللقاءِ بعدَ مرارةِ الفقد والضياع.. وهكذا مضت بيَ الأيامُ وسارت، دونَ أن تشعرَ بي.. لا يهمُّني ذلك.. ما يهمني أنِّي أَلْتَقِيْهَا كلَّ ليلةٍ، أَتَّكِئُ متوسطًا قمرينِ منيرينِ، أَلْتَمِسُ منهما الضياءَ والحياةَ، يتهدَّجُ الضوءُ الهابطُ من أعلى فينحدرُ قليلًا قليلًا ليقعَ فريسةً في هوةِ الغروبِ المنيعة، بينما يظلُّ القمرُ المشرفُ من نافذةِ هاتفي يُضيءُ المكانَ حولي.. ويؤنسُ القلبَ المبتلى بوحشةِ الخذلانِ.

كنتُ أجلسُ ساعاتٍ أمامَ حائطها، متوثبًا، أشتهي كلمةً تكتبها في جبينِ الحائطِ تخفِّفُ عني وحشةَ الانتظار.. أنا المَعْنِيُّ بها، مَنْ قَطَعَ شَطرًا مِنَ العُمْرِ في دياجيرِ الأيامِ بحثًا عنها.

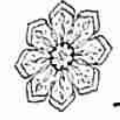


ثمَّ انقطعَ حبلُ اللقاءِ الذي تدلَّى نحوي فجأة؛ لظروفٍ قاهرةٍ أَلَمَّتْ بي، وما إن تمكنتُ من العودةِ لم أفكِّر بشيءٍ إلا في اجتيازِ حدود صفحتي إلى صفحتها..

كانَ حائطها مُزهرًا كمدينةِ الأمنياتِ التي نتسلَّلُ إليها من خلفِ سياجِ الحديد، أو إبحارًا في قواربِ الموت.

كانت طلائعُ الليلِ قد زحفتْ على الأرضِ حينما أردتُ الفرارَ إلى صفحتها، لكني وجدتُ الحدودَ مُحكمةً، قد أطبقَ عليها ظلامٌ حالكٌ مدهشٌ، حاولتُ أن أدخلَ في تلكَ الليلةِ ألتمسُ شيئًا من الضوءَ القادمِ من سَنَاهَا.. لكنَّ الحقيقةَ كانتْ صادمةً، لم تدعْ لي فرصةً أتحايلُ فيها على نفسي وأخدعها كما كنتُ أفعل دومًا، لقد غادرتِ الفضاءَ الواسعَ الذي جَمعني بها.. وتركتني مُضرَّجًا بدماءِ خيبتي، لقد كنتُ كمن أُلْقِيَ القبضُ عليه متسللًا في بقعةٍ تفصلُ بينَ مدينتين.. وحيدًا شريدًا خاليَ القلب، لانور ولاعابر ولاصوت، وروحي في ذهولٍ صامت، لقد كانت شُعاعًا انسحبَ وتركني أصارعُ ظلامَ الماضي وأعرج في مراقيه، وما أكثر ما أمضَّتْني سوالفُ الذكريات، لقد كانتْ قمرًا، وقد أَفَلَ وخِلْتُه لا يغيب.

في تلكَ الليلةِ الشاتية، تمزّقَ قلبُ الأرضِ التي كنتُ أتكئُ عليها، وبدا قلبي وقد أصابه اليأسُ، وركبتْه الأحزان، فعاجلتْه الأيامُ وألقتْ به بعيدًا بعيدًا عن مدينةِ الأحلامِ التي تداعبُ خياله منذُ الصغر..



ابتعدَ الزورقُ عني على أمواجِ القدر، حيثُ لا أرى شَبَحه في الأفق.. وَبَاتَ الفضاءُ مُتخمًا بِأَحْلَكِ ظلماتِ الليلِ.. يميني وشمالي، وخلفي وأمامي؛ غريقٌ في الظلام! وها قد عدتُ أعزِّي نفسي مُجدَّدًا، وأجاهدها على النسيان.. تلكَ المفردة التي تجمعُ بيننا وبينها اللغةُ والواقعُ والخذلان.

وكلما أحسستُ بعمقِ الجرحِ الذي خلَّفَه الغياب، أَرْتَمِي في فراشي كالخَائِرِ، وأُلْقِي برأسي على وسادتي، وأَبِيتُ أَسْتَذْكِرُ كلَّما كان، منذُ تفتَّحتْ كالزهرِ.. وتشكَّلتْ كالقَدَرِ، تقدمُ من وراءِ الليل، تحملُ الفَجرَ وأفراحَ المطرِ.



حنين

يكونُ المرءُ في مكانٍ بعيدٍ، وتحُولُ بينه وبينَ من يُحبُّ ويهوى، جبالٌ وبحار وسماء، بحجمِ ليالي الشتاءِ الطِوال. فينكفئُ على نفسه:

متذكرًا شيئًا مما كانَ بينهما في زمنٍ مضى، مما جادت به السنينُ المِلاحُ، فيضحكُ ملءَ قلبِهِ بصمتٍ، وقد يتذكرُ ذلكَ البعيد في لحظةِ شوقٍ، فيبكي بُعدَه المُمِضِ بصمتٍ مُحرقٍ..

أرأيتم كيفَ تعيشُ الأرواح في عالَمِها الطاهرِ؟ تعيشُ لغةَ تخاطبٍ فريدةً لا تتقنها إلا روحُ البعيدِ عن ترابِ قلبه.. إذن فلتعلموا أن الحبَّ هو من يمنحُ الروحَ طُهرَ الشعور، فبينَ المسافاتِ الطويلة تبكي الروحُ، وتضحكُ لغيابِ مَنْ تهوى، بفعلِ الحب، والحب فقط!!

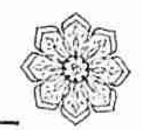


فتاة المطر

كانَ قلبي معلقًا بينَ مخالبِ طائرٍ جارحٍ، محمومٌ بالسياحاتِ عاليًا؛ أُلوِّحُ للغيمةِ كلَّما مَرَّتْ، وأتوسلُ إليها أَنْ تبكيَ؛ لترويَ عطشَ الوردِ، لكنَّ الغيمَةَ لم تَأْبَهْ بِتَوَسُّلَاتِي، تركتني مُمْحِلًا، وانسابَتْ مع الريحِ؛ لتمطرَ فوقَ الوديانِ البعيدة!

عندَ إخراجي من المدينةِ المُستلقيةِ على أحضانِ الجبال -تلكَ التي تُدهشكَ بسموِّ علوها، والتطلعُ إليها انفراجٌ لمسالكِ الأفق، ومغادرتها كارثة يغلِّفها الحنينُ والشوق، إنها مُدَلَّلة كطفلٍ تُحيطُ به معاصمُ الحنانِ من كلِّ مكان- كانت نفسي تتنازعني بينَ الرفضِ والقبول، تمنيتُ لو أنِّي أملكُ قدرةً على التمرُّدِ، على الفرارِ من بينِ أيديهم،أقضي ما تبقَّى من الوقتِ مُتسكِّعًا في المدينةِ الحُلُمِ؛ أبحثُ عن طيفٍ غادرني منذُ قَدَر.

كادت تفرُّ مِنْ عَيْنَيَّ دَمعةٌ، وأنا أهبطُ إلى المكانِ الذي أقبعُ فيه مُكرهًا؛ المدينة الصغيرة النائمة على خدِّ الطريقِ الممتدِّ بينَ أحراشِ



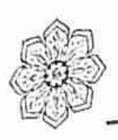
النسيانِ والموت! قُبيلَ المنتصفِ؛ عندَ شلال تسمَّى بالمطر، نزلتُ أترنحُ من وعثاءِ الرحيلِ، كنتُ ما بينَ النائمِ واليقظانِ، وجدتُني أقفُ على الجسْرِ، وتحتَ قدمي شبه بُحيرةٍ زرقاءَ تجمعت من بكاءِ غيمةٍ عابرةٍ، وفي لحظةِ تأملٍ، مرت أمامي نسْمةُ هواءٍ، روحٌ خالدةٌ، بريقٌ مُحتشِدٌ بالطيبِ وَالْتِمَاعَاتِ الكُحْلِ، إنها وحيُ الشعراءِ الذي يتنزَّلُ عندَ نزيفِ الأقلام، إنها المُثُلُ التي تنتصبُ بينَ يدي الأديب؛ عندما تتداعى عليه الذكرى؛ فيخلقُ الدهشةَ التي تنسلُّ مِنَ المعنى، فَمَنْ يوقف نهرَ الحرفِ الذي شاءَ أن يجري!

لقد كانت هي الفخامةُ وعُرام الزينةِ وتفتحُ الحياةِ بالحيويةِ المهيبة، فعندما التقتِ العينان؛اختلطتْ في قلبي الأشياءُ بالأشياءِ، وشعرتُ به يسيلُ كماءٍ بينَ ضلوعي، ثم يصيرُ هواءً.

تصلَّبتُ في مكاني، وبقيتُ راسخًا كأحجارِ القلاعِ الممتدةِ في ربوعِ وطنِنا الكبيرِ، فتناسيتُ المدينة التي كنتُ أبكيها، ونسيتُ الأيامَ والآلامَ.. نسيتُ نفسي المتشظية، ورأيتُ أحلاميَ المبعثرةَ؛ فجأةً تقفُ أمامي -كحلمٍ رائقٍ-، أسعَدَ في لحظةٍ قلبَ محزونٍ، ثمَّ انطوى عنه إلى الأبدِ.

هَوَى أحدهم بيديه نحوي، وأمسكني من ذراعي؛ لمواصلةِ المسير، فأفقتُ من شرودي والغياب؛ كانَ حينها يؤلمني، يغتالُ قدسيَّة اللقاءِ المنتَظرِ!

إنها المرةُ الأولى التي أقفُ فيها أمامَ مجامعِ الجمال، سكونُ



البحيرةِ، وشجيراتٍ مغروسةٍ في أطرافها؛ كحارسٍ عتيقٍ، وجمالِهَا الأخَّاذ؛ الملاذُ لحُسنِ الزمانِ الذي جعلَ منها مكانًا يستوطنُ فيه.. اجتمعَ حولي ثالوثُ الحياةِ، فانتشيتُ، وطربتْ روحي، وغشي المكان رياح ناعمة أشاحت خمارها الذي يحجبُ ضوءَ الشمسِ، فغمرني خَدَرٌ لذيذٌ، صككتُ أسناني؛ لأني لا أجيدُ الشعر، تمنيتُ لو كنتُ شاعرًا لأحييتُ ذكرى رؤيتها في قلبي بمدادِ الاشتياقِ الذي لا حدَّ له.

إنه لم يكن يشعرُ بما يعتريني، ما كانَ له أن يسمعَ وجيفَ قلبي الذي لم يتوقف، كنتُ أصرخُ بصمت؛ بأني لن أبرحَ المكانَ الذي تهبطُ فيه الرحمات، وكيفَ لي أن أتركها وأغادر، آهٍ من القلبِ إذا لقيَ الحياةَ وغادرتْه.

أَفْلَتُّ من يديه، وهرولتُ إليها بلهفةِ الفرحِ واللقاءِ، هي التفاتة واحدة، عمرها كعمرِ السنين، ولكنَّ زحامَ الجسرِ طواها عني، فأخذتُ أجري كالمجنون، وأحدق في الوجوه، ولكنها قد اختفت، وحينما ابتلَّت عيناي بالدموع، رأيتُ الجسرَ كأنه مشهدٌ من لوحةِ الطوفان.

وكلما اشتبكت في نفسي صورتها، صورةَ فتاةَ المطرِ المثقلةِ بأنوثةٍ مدهشةٍ، يثورُ إعصارُ الحبِّ الكامنِ في زاويةٍ بعيدةٍ بأعماقِ القلبِ، وهو يَتُوقُ دومًا لاجتياحِ كل ما يعترضُ طريقه. وأنَّى له ذلك؟ وقد تناءت بالرحيلِ والغياب.



الهروب

تضوعتِ المدينةُ بأريجِ الربيعِ، وانتشى الكونُ بانسحابِ الشتاءِ الثقيلِ، وخلعتُ للمرةِ الأولى معطفي البُنِّي الذي كنتُ أحتمي به مذ هجمَ الشتاءُ، وأَرْسى قانونَ حظرِ التجول على كل من لا يُطيقُ شدَّتَهُ! وشعرتُ بخفةٍ تنقلني من مكانٍ لآخرَ، أحسستُ بانقشاعِ المهابةِ التي يفرضها الشتاء، ويضفي علينا بوقارٍ لا يليقُ بنا.. عدتُ لاحتساءِ القهوة في مكاني المفضل، وتكَرَّرَتْ زيارتي للعديدِ من أصدقائي الذينَ حال بيني وبينهم حائطُ الشتاء!

في أثناءِ سيري لَمَحتُ امرأةً مُسنَّةً، مُضَمَّخَةً بالعجزِ، هدَّتها تصاريفُ الأيامِ، وَقَفَتْ قليلًا في مكانها، ثمَّ وَضَعَتْ يديها على رأسها الممتلئ بذكرياتِ الاغترابِ والحروبِ واللجوءِ، ثمَّ سَرَعَانَ ما سَقَطَتْ أرضًا مُعْلِنَةً حالة الاستسلام! هَرَعْتُ نحوها، أمسكتها بِكِلْتَي يدي، ومسحتُ على وجهها، كنتُ أَحْمِلُهَا بلطفٍ، وما كنتُ أحملُ سوى أمي. رؤيتها، بعثرتْ ذاكرتي بملامحِ الطُهرِ

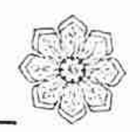


الذي تحمله، رأيتُني وقد عادَ بيَ الزمان، وأمي تحتضرُ أمامي، تودعُ اللحظاتِ الأخيرةَ، وتضعُ أمانةَ الأيامِ عنْ كاهلِهَا، لقدِ انْسلت روحُهَا بصمتٍ وهي بينَ يدي، كانت تلكَ فاجعةَ الدهرِ التي مُنيتُ بها!

نثرتُ عليها قليلًا من الماء، ففتحت عينيها المتعبتين، وبدا لي أنها تسمعُ صوتي، وتلمحُ خوفي ولهفتي، كنت لا أريدُ أن تنسلَّ الروح مُجددًا بين يَدَيَّ، فارتفاعُ الروح تورثني كآبة لا تغسلها أمطارُ السماء! همستْ لي بصوتٍ ضعيفٍ عنِ المكانِ الذي تعيشُ فيه، استقليتُ سيارةَ أجرةٍ، واتجهتُ بسرعةٍ نحو المكان، عند بناءٍ قديمٍ، تُحيطُ به مبانٍ حديثة وعماراتٍ عالية، نَزَلَتْ، وهي تتكئُ عليَّ، عند باب المنزل أَوْمَأْتُ إليه، طرقتُ البابَ بخفةٍ، فُتحَ البابُ، ليُفتحَ معه شَقَائِي على مرِّ الأيام!

بالبابِ كانت تقفُ فتاة حسناء، مليئة بحيوية القلب، تضجُّ منها أنوثة عذبة، بينَ عينيها سِحرٌ لا طاقةَ لي به، لم أر في عينيها نفسي فقط، ولكني رأيتُ الوجودَ كله، وقد استحالَ إلى بقعةِ نورٍ بينَ يديْ بُحيرةٍ تعكسُ زرقةَ السماء، مطرزة بأشجارِ الكرم، ومقعدين!

عانقتِ الفتاةُ أمها، وراحتْ تصرخُ بصوتٍ هيَّجَ قلبي، كانتْ تشكو البلاءَ الذي نزلَ بأمها، وكنتُ أشكو البلاءَ الذي نزلَ بقلبي، وأيقنتُ -حينها- أنني قُذفتُ في بئرٍ عميقة لا سبيلَ إلى الخروجِ



منها إلا بقافلةِ يَدَيْهَا، تمدُّ الحبلَ نحوي، فأتشبثُ بكلتَي يَدَيَّ وقلبي؛ لأنجو من مكيدةِ الأيام! لم أكنْ أتخيلُ أَنْ أُنْقِذَ إنسانًا من الهلاك، فأهلكَ بسببه، حَدَّقْتُ في ظلامِ الهُوةِ العميقةِ التي رُميتُ فيها، فلم تضايقني كُتَلُ الظلام، بل بَعَثَتْ في نفسي سكينةً كنت أبحث عنها منذُ رحيل!

كنتُ اختلسُ النظرَ إليها حدَّ الارتواء، ثم أعودُ مرة أخرى لأسالَ المرأةَ عن حالها، لكنني، كنتُ كتابًا مفتوحًا تظهرُ عليه ندوبُ الحرف؛ لقد قرأتِ المرأةُ في عينيَّ كل شيء، إعجابي، وهواي، وحيرتي، وخجلي، وأحسستُ -حينها- أنني فُضحتُ، وظهرت آثار سحرها في عيني، لقد أصابتني في مقتل، كان جمالها طاغيًا، اخترق كل الحُجُب والحواجز ونفذ إلى الأعماق، بسرعة الهوى! استدار وجه الأم نحو ابنتها (لولا هذا الفتى، لهلكتُ دونَ أن يلتفتَ إليَّ أحد). غمرني حياءٌ عارم، وسدَّ حلقي الصمت والخجل. اتجهت الفتاة نحوي تشكرني، فتحتُ مسامعَ قلبي لثنائها، كنتُ مزهوًا، وكانت لحظةُ ميلادٍ لذيذ! قالت لي بصوتٍ أنثوي صارخ، وقد أمسكت بيدي: إنني ممتنة لكَ بحياتي، أنتَ من أنقذَ أمي!

منذُ تلكَ الحادثة، باتت هي سلواي، ومُناي، هي الحلقةُ المفقودةُ في دائرةِ العمرِ، أمانةُ الأيامِ التي كنتُ أبحثُ عنها، تحييني بصوتِهَا، وترويني بحديثها حدَّ الشبعِ، لقد تَخَلَّيْتُ عن كلِّ شيءٍ، وباتَ الحديثُ إليها، مَطمعَ القلبِ الغريبِ!!



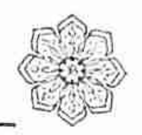
ما بين الفينة والأخرى، أشدُّ الرحْلَ لمنزلهم، أتفقدهم، ولقد مسَّني شيءٌ من جنونِ قيس، فقبلتُ الجدارَ بلا شعور، قلتُ لنفسي: أصابتكِ لعنةُ ليلى وقيس؟!

كنَّا على موعدٍ مع القَدَر، في اليومِ الذي الْتَقَيْنَا فيه، القَدَرُ الذي أتى بها من أرضِ الشام، هربًا من قذارةِ الطغيانِ، والقَدَرُ الذي أتى بي من أرضِ الحروب القذرة، كلانا فرَّ من لهيبِ الحرب، وكلانا ينشدُ السلام، وكلانا لاجئ!

كنتُ أبحثُ عن فتاةٍ منذُ زمن، تدثرني بحضورها، وتملؤني سرورًا، وكانت هي مزدحمةَ الذهنِ بالقصصِ الرومانسيةِ، وعَالَمُهَا يَضِجُّ بالفرسانِ والعشاقِ والمغامرينَ، ممن يردُ ذكرهم في الروايات والقصص التي تَعْكُفُ على قراءتها، وقد وَجَدَتْ فيَّ كلَّ ذلك، ولم أكنْ أحلمُ أن أكونَ فارسًا مُنتَظَرًا لفتاةِ القدر!

ومرتِ الأيامُ ودارتْ، وكانتِ الساعاتُ تتراكم أو تتساقطُ أو تستطيل، وانكشفَ لي أنَ المرأةَ التي أحببتها منذُ قدر: (فتاة غجرية)، وتعاني أختها الصغيرة من متلازمةِ داون (Down Syndrome). فأوجستُ خيفة، ودارت في رأسي هواجسُ العالمين، واسودتِ الدنيا في عَيْنَيْ قَلْبِي، ورحتُ أتلوى بألمي:

هل يبقى الحبُّ بيننا، أم يُهدم لهذا الانكشاف الذي آلمني؟! إنني لا طاقةَ لي بمغامرةٍ لا عنوانَ لها! أجهَدتني الحيرة، وسيطرت على قلبي فكرة الانسحاب، فلم أستطع لمدى أيامٍ ذات عدد، أن



أَهْنَأَ بِنَوْمٍ، أو أَقْرَأَ حرفًا من رسائلِها المخزونةِ في حائطِ الذكرى؛ ففي نفسي شيء من هذا الانسحابِ الثقيل، لكني وجدتني أنسحبُ رويدًا رويدًا، ولم أكن قبلَ ذلك مُذْ عرفتها، أتخيلُ العالمَ دونها، أو الحياة بغيابها، حياتي بغيابها مثلُ نقشٍ على رمالِ الشاطئ تعبثُ به الأمواج، كقصر مشيد قوضته قذائفُ الموت، حياتي دونها محضُ خراب!

كانت تغرز في قلبي أسئلة لا أجدُ لها جوابًا، كانت تعتقدُ في لحظةِ حبٍّ أنني واحد من الأبطالِ والمغامرين الذين تَلْتَقِيْهِم في أروقةِ الرواياتِ والقصصِ التي تقرؤها، بدأ إيمانها بي يضعف، ويقينها يتلاشى، ويشتدُّ الضعف؛ كلما رأت مني هروبًا لا معنى له.

لم أكن لأقولَ لها، إنني أهدمُ كوخ الحبِّ الذي شيدته الأحلام، لدمائِنا المختلفةِ؛ وخوفًا من لسانِ المجتمعِ الحادِّ، ومن مرضٍ واقعيته أقوى من قصر الحبِّ الذي صنعتْه يدُ الخيال، نظلُ ننفقُ فيه وقتًا طويلًا نثرثرُ عن الحبِّ الذي لا حدَّ له، وعن حدِّ الموت الذي يُنهي قصتنا، إنني كنتُ أكذبُ فحسب، فهناكَ مسافة لا تعبر بينَ الحلم والواقع، هناكَ أحلام ملونة تبهت، أو نغمات تذوبُ بلا نهاية. هناك حبٌّ يموتُ من فرْطِ الجُبنِ والفرار.

في العذابِ عشتُ أيامًا وبضعَ شقاء، انسحبتُ من محيطها، وكلما أوجعتني سياطُ الضميرِ كلما نثرتُ على نفسي المتعبةِ ألوانًا من المعاذيرِ السخيفةِ التي تنجيني من عذاباتٍ لا تنتهي!



وبدأ داءُ التعودِ والإلْفِ يطوقني، وبدا لي أَنَّ شيئًا فِيَّ قد مات، كنتُ أعلمُ أننا لا نتعودُ إلا إذا ماتَ فينا شيء، وإنني لا أتصورُ حجمَ ما مات فيَّ حتى تعودتُ كل هذا الهروب! بعد مُضي سنواتٍ عجافٍ على قلبي، فتحتُ صفحتي على الـ: (فيس بوك)، كادت أن تتشظى من طولِ الغياب، كتبتُ في الحائطِ بعدَ انقطاع: «أذكركِ كما يذكرُ رضيعٌ أمَّه، فمٌ ملهوفٌ، ولا ثديَ. ثمة قطاراتٌ تحملني دائمًا إليكِ، ولا وصول!». تسللتُ خفيةً لصفحتها، أمارسُ مهنةَ التلصص، اقرأ حرفها الذي غادرني، واسترقُ الأخبار من حائطها الأزرق الذي تسكبُ فيه مرارةَ الخذلانِ التي لَحِقَتْ بها.. فُتِحَ الحائطُ الأزرقُ، ورأيتُ صورةً في طورِ التحميلِ، ورفعتُ بصري للأعلى، فوجدتها: تشعرُ بالسعادةِ، فزادت حِدَّةُ شغفي، وعادَ خفقانُ قلبي كيومِ رأيتها فيه للوهلةِ الأولى، ظهرتِ الصورة، تحملُ صورةَ صبيٍ كالقمر، رأيتها فيه. وفي أسفلِ الصورة، كَتَبَتْ تعليقًا حادًا تقول فيه: إنَّ الجُبناءَ لا يُحبون!



صدمة وانتقام

مِن وراء الجبالِ الوعرةِ، أقبلَ يشدو نحو المدينة، مُوَدِّعًا خلفه حياة المراعي والوهاد، والحجارة والشقاء، والبحثِ عن الماءِ، والحياةِ بينَ الصخورِ والقرى المجاورة..

لم يكن يعرفُ من المدينةِ إلا الأحلام التي رآها في منامه.. أو شيئًا من قصصِ الأساطيرِ التي حكيت له عنها..

احتاج لعامينِ كي تتواءم شيءٌ من طِباعه مع نسق المدينةِ الذي يسيرُ بوتيرةٍ مُسرعةٍ، منذُ تلكَ اللحظة التي اخترقَ بريقُ الأضواءِ عينَيْهِ، وهو يشعرُ بصدمةٍ تأبى الانفصال عن مخيلته.

في سنواته الخمس الأولى، عاشَ بين الحلمِ واليقظة، الحلمُ الذي يعشعشُ في أغوارِ أعماقه، واليقظةُ التي يراها أمامَ ناظريه، فانكفأ على نفسِهِ يمتحُ من معينِ العلم، وينهلُ من رياضه، دونَ التفاتٍ لضوءٍ يأتي من هنا أو هناك، يهتكُ سترَ العزلةِ التي جاءَ يحملها من حياته الأولى..



لم يكن يحلمُ أن يتزوجَ بامرأةٍ من المدينة، فذلكَ جزء من الأسطورةِ التي سمعها، لكن الحلم تحقق، ورأى الأسطورةَ تمثلُ بين يديه، وتزوجَ فتاةً مشرقة من المدينةِ الحلم، ورأى فيها كل شيء، وهو القادمُ من هاتيكَ الجبال، ولم يكن يرى حينها إلا ظلَ امرأةٍ تحملُ الكَلَّ بين ذراعيها، وتبحثُ عنِ الماءِ والحياة.

أعودُ إلى بدايةِ قصتنا.. إلى أيامٍ خوالٍ صارت بعيدةَ المنالِ، أَتَذَكَّرُهَا كحلمٍ بعيدٍ، أو كأنها لم تحدث على الإطلاقِ سوى في ذاكرتي التي ترفضُ النسيان!!

في تلكَ الليلة، تقدَّم والدي يخبرني عن شابٍ يريدُ خِطبتي، كنتُ الفتاةَ الوسطى، تمنيتُ أن أكونَ الملكة التي تنتظرُ مليكها القادمِ من رحمِ الأقدارِ الجميلة، بدأ والدي في الحديث عنه، بأنه شابٌ ذكي، طموح، أتى من مدينةِ الجبال الوعرة، شقَّ طريقه بمعولِ التحدي.. صحيح أنه لا يملكُ شيئًا، لكنَّ الأيامَ كفيلة بمنحه ما يتمناه..

بعد حديثِ والدي أوجستُ خيفةً في نفسي، وراحت عبارة والدي «صحيح أنه لا يملكُ شيئًا» تَطِنُّ في أذني، وتمزقُ صورةً رسمتُها ذاتَ حُلْمٍ في مخيلتي. أبلغتُ والدي حينها بموافقتي، قلت لنفسي: العلم والطموح الذي يسعى إليه، هبة تستحقُ الشكر، وعلى الله قصدُ الحياة. تمَّ الزواج، وعشتُ معه في بيتٍ صغير، لا شيءَ فيه، سوى قلبينِ يسعدُ أحدهما بالآخر، تظللهم سحائبُ الرضا.



ولا أبالغُ إن أقسمتُ أنني عشتُ أجملَ قصةِ حبٍّ مَرَّ بها إنسانٌ منذُ بدءِ الخليقةِ، كان زوجي بُنْيَانًا من الصفاء، وقلبًا طاهرًا أتى من أطراف البلادِ لا يعرفُ شيئًا عنِ المدينة وحياتها، كُنتُ أمامَه مَلِكَةً بعرشٍ وسلطانٍ، كنتُ له كلَّ شيءٍ، وكانَ لي فتى الأحلام الذي رمت به الأقدارُ في عالمي.

بعد سنوات خمس من لقائنا الأول المَمْهُورِ بالدهشةِ، خَفَتَ أوارُ الحبِّ بيننا، وأوشكَ المصباحُ أن يسكتَ ضوؤُه، وخرسَ بلبلُ الشوقِ، وصَمَتَتْ ترانيمُ المساءِ، وماتتِ الدهشةُ التي كانت تسكننا، ومنذُ تلكَ الأيامِ وأنا لا أعلمُ سرَّ هذا التَّغَيُّرِ الغريبِ الذي أحالَ حياتنا جحيمًا! كانت حياتي تسيرُ بشكلٍ جيدٍ، حتى حدثَ هذا التحول في شخصيته، لتقفَ حياتنا -فجأة- على حافةِ الانهيارِ، توشكُ أن تسقطَ للأبد.

تركني خلفه مع الجبال التي غادرها، وأصبح صموتًا، لا يحدثني عن شيءٍ كما كانَ يفعلُ من قبل، باتت ملامحُ وجهه مَعْلَمًا للقلقِ الذي يسكنه، يمرقُ من البيت كل صباح، ولا يعودُ إلا ليلًا، يتهيأ للنوم، وجهازُ الهاتفِ بين يديْهِ، يدفنُ رأسَهُ في شاشتِهِ، يتجهمُ تارةً، ويضحكُ تارةً أخرى، حتى إذا بلغَ به الإرهاقُ مبلغًا تركَه بجانبه، وراحَ يطلبُ الراحةَ والهدوءَ في نومه.

جلستُ مع نفسي استرجعُ سرَّ تغيُّرِهِ، بدا لي أنني أمسكتُ بطرفِ الخيطِ، وأكادُ أن أصلَ إلى معرفةِ السرِّ الذي جعلَهُ راغبًا



عني، وجعلَ حياتنا تمرُّ بنمطيةٍ أثقلَ من ماءٍ راكدٍ في بركةٍ آسنةٍ تغرقُ بالماءِ منذُ زمن.

اتسعت وتيرةُ الأيامِ، واتسمتْ حياتنا بالجمود والتبلد، لم تعد الأيامُ بالنسبةِ لي إلا نُسَخًا مكررةً لصورةٍ مهترئةٍ تُعْرَضُ كُلَّ يومٍ، ونجبرُ على مشاهدتِهَا.

في لحظةِ غضب، أمسكتُ بخناقه، صرختُ في وجهه، وبكيتُ مِنْ عجزي الذي أحالني لتائهة فَقَدَتْ طريقها في ليلةٍ حالكةِ الظلامِ..

- ألم تكنْ فقيرًا مُعدمًا، وقبلتُ بك؟..

- ألم تكن غريبًا فقربْتُكَ؟..

- ألم تكن تائهًا في أضواءِ المدينة فرسمتُ لكَ الطريقَ، وأدخلتكَ في قلبي؛ حفاظًا عليكَ من تقلباتِ الأيامِ التي كنتَ تجهَلُهَا؟..

- كيفَ طابَ لكَ أن تجعلَ مني قطعةً مهملةً في متحفِ الذكرى العتيقةِ؟..

غرني بكَ ضعفك، وخِلْتُنِي أصنعُ منكَ فارسَ أحلامي، أتيتَ بلا خيلٍ ولا سيفٍ، فجعلتُ منك فارسًا، فتركتني ومضيت..

- كُفْي صُراخكِ يا امرأةُ. وهوى بيده نحوي، فقمتُ من نومي صارخةً أندبُ حظيَ التعيس.



انطوت السنينُ بيننا، نعيشُ حياةً إجباريةً لِكِلَيْنَا؛ فقد خجلتُ من نفسي، وأنا أحزمُ حقائبي لمنزلِ والدي هربًا من العيشِ الأصمِّ الذي أحياه، وخجلتُ من رؤيةِ والدي وهو يشعرُ بالندمِ؛ لأنه قدمني لهذا المصير.

كنتُ أستجمعُ قوتي وأعودُ لمنزلي بصحبةِ طفلي، لإتمامِ ما تبقى من فصولٍ لمسرحيةٍ باهتةٍ، أقنعتُ نفسي بالقبولِ والرضا، ماتتْ في نفسيَ الحياةُ التي تعيشُهَا كل فتاةٍ في عمري، استحليتُ رضاعَ التبلدِ، فلم أَعُدْ أَبْكِي إذا ما رأيته يضحكُ من أعماقِ قلبه مع صديقةٍ أو عشيقةٍ تُهَاتِفُهُ، ولم أَعُدْ أحزنُ إذا ما وجدتُ رأسَه مدفونًا في جهازه المحمول الذي لا يفارقُ ظلَّه، ماتَ في نفسي بعدَ أن كانَ الحياةَ لقلبيَ المكسورِ بمطرقةِ التجاهلِ والنسيانِ.

حدثَ كلُ ذلكَ بعدَ تلكَ الليلةِ التي جلسنا فيها سويًّا، قلتُ له: لماذا لم تعد أنتَ الذي أعرف؟ تتركني لأيام دونَ سؤال، وأنتَ بجواري! تمرُّ بكَ الأيامُ ولا تعلمُ شيئًا عني، لم أَعُدْ أُمَثِّلُ لكَ شيئًا، ولم أَعُدْ إلا حارسةً لبيتٍ يسكنُهُ الخرابُ.. فهنا أبكي أَلَمًا، وهناكَ أصمتُ خجلًا، وكلاهما مميتٌ لقلبي الحائرِ من تقلباتِ الأيام.

قال لي: دعي عنكِ توهماتِ الأيامِ، واهدمي بئرَ التخلفِ الذي تسكنين فيه، فأنا غارقٌ في بحْرِ مشاغلي، ومسؤولياتي التي لا حصرَ لها، لم أعد أجدُ الوقتَ لشيء، كُفي عنكِ الشكوى يا امرأةً أتى بها الزمنُ في لحظةِ تهورٍ وجهل!! فاليوم ليسَ كالأمس،



والإنسانُ يترقى في معراجِ الحياة ولا يبقى في سُلمٍ واحدٍ بلا حراك، وباتت حياتي تتنقلُ بينَ المشاغلِ والإنجازاتِ التي أشيدها بطموحي وإرادتي التي تأبى العجزَ والسكون.

قلت له: لم أكن أتصورُ أن أكونَ محضَ صُدْفَةٍ بَلِيْدَةٍ رمى بها القَدَرُ في عالَمِك، لحظة تهور وجهل! ومشاغلك تزول عند مهاتفةِ الفتياتِ اللاتي تنفقُ ليلكَ في الحديث...

لم أكمل حديثي حتى صَرَخَ في وجهي بأنني بتُّ أعيشُ رهينةً للأوهامِ والتخلفِ.

في صباحِ أحد الأيام، شاهدتُ زوجي يتحدثُ في التلفاز عن سرِّ السعادةِ والنجاحِ، والطموحِ الذي لا سقفَ له، وعن كبسولاتِ الحياةِ السعيدةِ، وعن ثقافةِ إسعادِ الآخرِ الغائبةِ عن حياةِ الناسِ.. وجدتني فاغرةً فمي، وأنا أصغي لحديثِهِ الذي يضَعُهُ في أقربِ مِكَبٍّ قبلَ الصعودِ إلى المنزل!

بعد مضي خمسة عشر عامًا من ارتباطنا القَدَري، مرت الحياة بتعرجاتٍ ومنعطفاتٍ حادةٍ، اعتصمتُ فيها بالصبرِ، وخاضها بطموحِهِ الجامحِ .. ففي هذه الأعوام تزوجَ فتاةً جميلةً، ممتلئةً بالأنوثه، أَحَبَّهَا حبًا عظيمًا، كانت صورةً فاتنةً للمدنية التي يُنْشِدُهَا، مرَّغَ نفسَهُ بكلِ أوحالِ الذُّلِّ حتى يصلَ إليها.. عاشَ معها بضعة أشهر، ثم انتقلت قصة الحبِّ بينهم لمجالساتٍ ومرافعاتٍ في أروقةِ المحكمة!



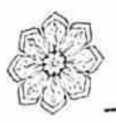
في صباحِ أحد الأيام، وقفتُ على مذكراتٍ يَكْتُبُهَا كلَّ يوم، يصورُ ما يحدثُ معه في أروقة المحكمة مع محبوبته.. وفي الدفترِ نفسِهِ وجدتُ نصًّا بخطي كَتَبْتُهُ منذُ تسعةِ أعوامٍ، أملًا مني في أن يقرأه في لحظة عابرة:

«إنَّ المرء كلما صرفَ الحبَّ لامرأةٍ أخرى، ينحدرُ رصيدُ الحبِّ لزوجتِهِ التي تراهُ كلَّ شيءٍ في الوجودِ، ويراها -هو- شيئًا صغيرًا في حياته.. بحاجةٍ للاتساعِ المُفرغ من قيودِ الحقوقِ والواجباتِ».

لعله أدركَ وَقْعَ تلك الكلماتِ التي سَطَّرْتُهَا في لحظةِ بكاءٍ. وأنا أحاول النسيانَ المتجددَ لتستمرَ الحياةُ، حتى وإن لم تكن بالصورةِ التي كنا نحلمُ بها.. فالنسيانُ عملية تحايل رخيص لنحصلَ على المتعِ السريعةِ التي تَقْضِيْهَا لنا لحظاتُ حياتِنَا المفككةِ.

وكنتُ قد وضعتُ يدي على السرِّ الذي حَمَلَهُ على التغير والانعتاق، والابتعادَ عن حياته الأولى بكلِّ ما فيها من حبٍّ وذكرى وألَمٍ.. إنها الصدمة التي مُنِيَ بها يومَ مجيئِهِ من خلفِ الجبالِ القاسيةِ إلى المدينةِ التي وجدَ نفسه فيها كفراشةٍ يعبثُ بها الريحُ، وتَتُوْهُ في الفضاءِ الممتد!!

ولهذا قررَ الانتقامَ من كلِّ شيء؛ انتقمَ لأيامه التي قضاها بعيدًا عن الحياةِ التي ينشدُها، انتقمَ لأفكاره التي ظلتْ لزمنٍ تعيشُ رجعيةً وتخلفًا، انتقمَ من كلِّ شيء عتيقٍ يُذَكِّرُهُ بحياةِ الجمودِ



والشقاءِ؛ للوصولِ إلى المجدِ والطموحِ الذي كان بمثابةِ السرابِ، يركضُ خَلْفَهُ حتى إذا جاءَه لم يجده شيئًا، فيبحثَ عن سرابٍ آخرَ يمارسُ معه مُتْعَتَهُ في الركضِ وراءَه.. فكلَّما أبصرَ السرابَ مجددًا، يصبحُ مُعَلَّقًا على حافةِ الانزلاقِ إلى هاويةِ العدمِ السحيقِ، فيثورُ دمُ الانتقامِ، وتثارُ حواسه إراديًّا من أطايبِ الحياةِ التي ينهشه قلقُ زوالِها، فيدهسُ ما تبقَّى لديه من ذكرى، وتغرقُ مشاعره في فوضى لا مثيلَ لها، ويصبحُ التيهُ عنوانًا ليومياته.

وقد أدركَ بعدَ مرورِ السنين والأيام تلكَ الهوة السحيقة التي فغرت له أشداقها وأحدَّتْ أنيابها، فلا يزالُ يتهاوى فيها ما اندفعَ به إليها هواه.

وقد جمحَ سُعار الهوى، والتفتَ إلى الحبِّ القديم، الذي أزهرَ في قلبه منذُ التقيا، ثم تَرَكَه حتى ذبل.. راحَ يطرقُ عليه الباب، خَجِلاً، يحتقِبُ التوبةَ والندم. يأملُ الغفران والقبول؛ لتسمو الأرواح مرةً أخرى إلى ذلكَ الجو الذي يعطره النُبْل، ويفيئه الحب، ويندِيه الحنان، ويغمره الرضا، وتسبحُ فيه النجوى أنغاماً حرَّة تهيمُ وتتعانق.

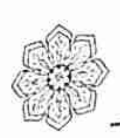
وما كان لقلبِ المحِبِّ أن يتمنَّع ويوصد الأبواب إذا طُرقت. عادَ القلبُ الشاردُ حيناً من الألم؛ ليطفئ لهيب الحرائقِ التي أشعلها البُعْدُ والغِياب.. ونمضي سويةً، يحملنا زورق من اللذاتِ الطاهرة الجميلة، تحف به الملائكة، وتغني لقلبينا أناشيد العودة والخلود.



إحساس

بعض الحوادثِ الصغيرةِ في مرحلةِ الطفولةِ التي يسجلها الأدباءُ في سِيَرِهِمُ الذاتية، لَوْ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِم؛ لكانتِ الأيامُ قد استطاعت أَنْ تمحوها، وأنْ تجعلَ منها ذكرى طريفةٍ من ذكرياتِ الوعيِ الأولِ بالحياةِ.. لكنَّ الأديبَ يتمكنُ من إعادةِ رسمِ صورتِهَا، كما كانت يومَ وقوعها، ويعودُ بالقارئ لأيامه الأولى في رحلةِ الحياةِ عبرَ أثيرِ القلمِ، ومن ثم تجد تأثير تلكَ المواقف وأثرها على الأديب، وما ذلكَ إلا لإحساسه المرتفع الذي لا يتركُ للنسيانِ مكانًا في صفحةِ الذكرى!

ولإدراكه أنَّ الطفولة وطن قد هاجرنا منه إلى عوالم جديدة، وكل ما يصنعه؛ محاولته في استدعاءِ أوطانٍ متخيَّلة، مزهرة بعبقِ الماضي، وهي تعبير عن حالةٍ من حالاتِ الفقد، وتخليدها بالكتابة، تخليدٌ لتاريخِ وطنٍ وإنسان، ومحاولة حثيثة لاستعادةِ ما ضاع، ولو أضفى خيالاً عذْباً لضبابِ الذكرى عن طفولته التي



يشتاقها، لفعل. فَهَمُّه إعادةُ الإحياءِ لتلكَ الطفولة، وجعلها حياة قائمةً بين يديه.

فالأديب هو من تأثرَ بمظاهرِ الحياة، ويحاولُ بأدبه أن ينقلَ هذا التأثرَ إلى الناسِ؛ ليشعروا بشعوره، وينفعلوا بما انفعلتْ به نفسُهُ؛ فإن هو لم يتأثر وحاولَ أن يؤثر كانَ أديبًا مزيفًا، وكانَ الفرقُ بينه وبين الأديبِ الحقِّ كالفرقِ بينَ النائحةِ الثكلى والنائحةِ المُستأجرة. كما يقول (الزيات).



ماذا تعني الصورة؟!

يرحلُ الإنسانُ بخواطرِهِ وشعورِهِ بمجردِ أن يرى صورةً قديمةً، يقفُ فيها مع أفرادِ أسرتِهِ، أو بعضًا من أصدقائِهِ القدامى، الذينَ اختلفت أقدارهم، فمنهمُ الراحل، ومنهم من ينحتُ في جدرانِ الحياةِ بلا هوادة..

إنَّ الصورةَ تمثلُ تاريخًا؛ فهي تقتطعُ شيئًا من الزمن، وتوقفُ المكانَ والزمانَ وتفاصيلَ الأشياءِ المحيطةِ؛ لتبقى من شواهدِ الذكرى، كقطعةٍ ثمينةٍ في متحفِ الأيامِ! وهي ضربٌ من ضروبِ الشِعْرِ الذي يُرى ولا يُسْمَعُ، كما أن الشِعْرَ ضرب من الصورة المتقنة التي تُسمعُ ولا تُرى!

فالصورة تؤرخُ لِلَحَظَاتٍ إنسانيةٍ خالصة، وتظلُ تحملُ مدلولَ البراءةِ والبساطةِ كلما تقدمَ بها الزمنُ، ولو رجعَ الواحدُ منا لِصُوَرِهِ القديمةِ لغرقَ في الضحكِ والثناءِ على تلكَ الأيامِ والزمنِ الجميلِ الذي ولى..



وقد تَسْتَدِرُّ الدمعَ والوجعَ لمن لهم في قلوبنا تاريخ ممتزج بعطرِ الحنين!

ولسرعةِ مرورِ الأيامِ، وانسلالِ الليالي من بينِ أيدينا.. يحرصُ المرءُ على التشبثِ والاحتفاظِ بشيءٍ من الزمن، من خلالِ صورةٍ له هنا أو هناك، فهو يدركُ أَنَّ الصورةَ لها معنًى أكبر من مجرد لقطةٍ عابرةٍ في مكانٍ ما.



شيء من الذكرى

ولقد أتى عليَّ زمانٌ كنتُ لا أستسيغُ الخروجَ مِنَ المنزلِ حاسرَ الرأس، أتشبثُ بالعمامةِ فوقَ رأسي كإرثٍ مقدس، أتذكر -دومًا- ما رويَ عَنْ عُمَرَ أنَّ العمامةَ تيجانُ العربِ.. وكنتُ أتفنَّنُ في ربطها على رأسي، ولو كلفني حينها حربُ العالمِ أهونُ عندي من نزعها والتخلي عنها.

وودعتُ -وأنا ابنُ الثالثة عشر- لبسَ البنطال، وباتَ عندي من خوارمِ المروءة، ومما يُعابُ به الرجال، وانصرفَ ذهني عن أمورٍ كنتُ أحبها، واستقبلتُ حياة أخرى تبدأ بالعمامة، وتنتهي بتجريمِ لبسِ البنطالِ والسُبحة. ولقد أتيتُ على صندوقٍ يحوي في داخله ذكرى السنين، فمزقتُ كل صورةٍ وقعت عليها يدي، وكنتُ أشعرُ حينها أني أحطِّمُ الأصنامَ الرابضةَ في قلبِ مكةَ..

وكان تقييمي للإنسان -حينها- لا يتجاوزُ صورتَهُ الظاهرةَ، فإن اقترفَ ما يخرمُ مروءته -في نظري- يهوي في قاعِ السقوط..



وكم جَنَيْنَا على أشخاصٍ كانوا من العلمِ والفضلِ بمكان، أتى عليهم قلمُ التصحيحِ فشُطبوا من دائرةِ النجاة!!

ومما جنيته على نفسي في تلكَ المرحلة أني رغبتُ عنِ الدراسةِ النظامية وزهدتُ في الاهتمامِ بها، بعدَ أن كنتُ مبرزًا فيها، وكل ذلكَ لما كنتُ أجِدْه في المدارسِ من منكراتٍ جسيمةٍ يأبى قلبي السكوتُ عنها والتماهي معها.. هكذا ظننت!!

ولقد رأيتني وأنا أتَّزر بإزارٍ في المدرسة، ويتمُّ إخراجي من قاعةِ الدراسةِ؛ لأني خالفتُ نظام الزي المدرسي، فأقفُ في الساحةِ انتظرُ العقاب، وأنا أهتفُ في داخلي: أثبتْ فإنكَ على الحق!!

مرت تلكَ الأيامُ، وظلتْ ذكراها في نفسي، كانت تتسمُ بالعديدِ من السلبياتِ التي يقفُ وراءها بعضُ الأفكارِ القاصرة التي تلقيناها كدينٍ لا ينبغي التهاون فيه..

وما أرجو عودته من عبيرِ تلكَ الأيام،الصدقُ الذي كنا نحمله في قلوبنا، والإيمانُ الذي كنا نشعرُ به، والاجتهادُ الذي كنا نعيشه.. وملازمةُ القرآنِ الدائمة، والتقرب إلى الله بشتى القُربِ والأعمال.

ولو قابلنا ما نحنُ اليومَ فيه بتلكَ الأيام، لحكمنا على أنفسنا بالضياعِ والتفلت.. وما –والله– خيرٌ من التوسطِ والرفق والمضي والسير بهدوءٍ، بعيدًا عن الحماس والركود، وبعيدًا عن الغلو والتفلت.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [سورة البقرة: 143]..



موقف من الزمن الجميل

قبلَ ثلاثة عشرَ عامًا، وُفقتُ لأولِ مرةٍ لزيارةِ بيتِ الله الحرام لأداءِ العمرة، وقبلَ مغادرتي لتلكَ البقاعِ الطاهرة في العشرِ الأواخرِ من رمضان، كنتُ في صحنِ الكعبةِ أقرأُ القرآنَ ما بينَ الآذانِ والإقامةِ لصلاةِ الفجر، كنتُ ألبسُ فوق رأسي يومها ما يلبسه إخواننا في الهندِ وباكستان (كوفية) مزركشة تُباعُ غالبًا عندَ الممراتِ المؤدية لحماماتِ الحرم.

جلسَ إلى جواري رجلٌ أسمرَ اللون، طويل القامةِ، يشعُّ النورَ من صفحةِ وجهه، (هل أنتَ من الهندِ) قالَ لي؟!

قلتُ له: من اليمن.

(آه بلدُ العلمِ وأحفادُ المهاجرينَ والأنصار). قال لي وهو يبتسم.

كانَ ذلك اليوم هو فجرُ يومِ الجمعة.. أخذَ الرجلُ يسألني وأجيب، ومضى الوقت في التعارفِ بيننا، فهو من دولةٍ إفريقية، نسيتُ اسمها..

قال لي يومها: أني أجيدُ فنَّ الفراسة، وإنني أتوقعُ -والعلم عند الله- أنكَ ستأتي هنا في العامِ القادمِ لأداءِ العمرةِ مجددًا.. ولعلنا نلتقي إن شاء الله!

ثم سألني: كم تصلي على النبي ﷺ في اليوم؟

كنتُ في تلكَ السن، من الهمَّة بمكان، حريصًا على الواجبات والنوافل، وغيرها من أمورِ البر.. وكنتُ أُكثرُ منَ الصلاةِ والسلام على النبي ﷺ، لا سيما في ليلةِ الجمعة ويومها..

قلتُ له: أصلي على النبي ألفي مرة في اليومِ والليلة، وقد تزيد.

وكنتُ -حينها- صادقًا في ما أقول.

قال لي: آه، أسفي عليك -توقعتُ أنه سيشهقُ من كثرةِ صلاتي على النبي ﷺ- ما زلتَ بعيدًا عن طريقِ الحب الذي يجعلكَ تلهجُ بذكرِ المحبوب!!

خجلتُ من نفسي قليلًا، ثم سألته: وأنتَ كم صلاتكَ على النبي؟

قال لي: إنني أصلي على النبي ﷺ في اليوم أكثرَ من خمسين ألف مرة، ولا زلتُ أشعرُ بالتقصيرِ نحو الحبيب، ولا زلتُ أتَّهمُ حبي للمحبوب، ولقد مضى عليَّ زمان، لا يهدأ لساني من الصلاة على النبي، ولقد أورثني ذلكَ راحة في قلبي، ويقينًا ينسكبُ بينَ ضلوعي، وفراسة لا تُخطئ!



ودَّعْتُه بعدَ صلاةِ الفجر، وانقضى رمضان، وعدنا لأوطاننا، بعدَ شهرٍ إيماني في رحابِ الله.. ثم انغمستُ في حياتي، ونسيتُ كلَّ شيءٍ، حتى أقبلَ رمضانُ، وإذا بي أُوَفَّقُ للسفرِ لأداءِ العمرة للمرةِ الثانية، وتذكرتُ حديثَ الرجلِ، ورحتُ أبحثُ عنه كل يومٍ في صحنِ الكعبة، أتأملُ الوجوهَ، أملًا في لقائه، لكنني حزمتُ حقائبي للوطنِ دون أن أراه.

ولا زلتُ كلما تذكرته؛ ذكرتُ الله وصليتُ على النبي.

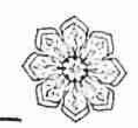


على ضفاف الذكرى

قبلَ ثمانِ سنواتٍ مضت -تقريبًا- كنتُ شغوفًا بكتاباتِ العلامة الأديب علي الطنطاوي -رحمه الله- حدَّ الوَلَهِ.. أقرأ كُتُبه ليلَ نهارَ، وأتابعُ كل كتابٍ له يصلُ إلى المكتبات -مما أخرجه حفيده الأديب (مجاهد ديرانية)-، في إحدى المرات -وكنتُ حينها في صنعاء- وجدتُ في إحدى المكتبات «فتاوى علي الطنطاوي»، و«مقالات في كلمات» لأول مرة، ولا أملكُ -يومها- شيئًا من المال..

خرجتُ وأنا أحملُ في قلبي حسرةً كبيرةً، أتألم لعجزي عن اقتنائها، وتركي لها دونَ حول مني ولا قوة.. حالي كطفلٍ انتُزِعَ من لُعبتِهِ، وعاشقٍ حُكم عليه بحدِّ الفراق..

في أثناء سيري لمنطقة (التحرير) للقاء بعضِ الأحبة رنَّ هاتفي، طلبني أحد الأصدقاء لأكتبَ «عقد بيع» لأحدِ محلات الأسماك.. وتحت إصراره وافقت، وأنا ما كتبتُ في حياتي صيغة عقد بين متبايعين، دخلت الديوان ووجدته مليئًا بالناس، قاموا



للسلام عليَّ واستقبالي، أمسكتُ بالورقة والقلم.. شعرتُ بشيءٍ من الاضطراب. لا أعرفُ ما أكتب!.. ولا أريد أن أظهر بينهم مفضوحًا بجهلي..

قمتُ بسؤالهم عن الدكَّانِ الذي سيبُاع، وبين مَن ومن؟ والقيمة المتفقِ عليها.. استطعتُ أن استشفَّ الكثير مما سأكتبه..

المهم، استعنتُ بالله وكتبتُ العقد ووفقت، وقمت بإمضائهم وإمضاءِ الشهود، وتمتِ البيعة بنجاح، وكان نصيبي -جهود أتعابي- خمسة آلاف ريال، كانت وما زالت لها وقعٌ في نفسي وطيبُ ذكرٍ في مخيلتي.. استأذنتهم للخروج، وهرولتُ للمكتبةِ مسرعًا.. اشتريتُ بجميعها كتبًا، وفي (التحرير) حيثُ اللقاءِ الجميل مصحوبًا بالحليبِ العَدَنِيِّ، قصصتُ لهم ما حدث وسط ضحك الجميع، ومناداتي بالمأمون الشرعي.



شيخوخة مبكرة

في الفترةِ التي كنتُ فيها مدمنًا لكرةِ القدم، كنتُ أجترُّ الأهدافَ التي أحرزْتُهَا في نشوةٍ وانفعالٍ، وكثيرًا ما كنتُ أقيمُ في ذهني مبارياتٍ تجري حسبَ هَوَايَ، فكانَ حماسي للمبارياتِ الوهميةِ يرهفُ حواسي، ويطردُ النومَ من عيني!

وإذا ما كنتُ على موعدٍ مع مباراةٍ في النهارِ، أرسمُ لها بدايةً ونهايةً، وأحرزُ فيها الأهدافَ قبلَ أن تبدأ، وكانت مقولة: «لتكن الكورة صديقًا لك في كل وقت» -التي سمعتها من مسلسل (الكابتن ماجد)- تسيطرُ على عقلي وفؤادي، فلا أذهبُ لأي مكان إلا وهي بجانبي. وكان اليومُ ينسلخُ في اللعب، ففي الصباحِ نلعب في المدرسة -مدرسة (عمر بن الخطاب)- وفي العصر نتجه لِلَّعبِ في ما كانَ يُسمى بالنضال أو البرازيل -خلفَ الإذاعة حاليًّا-، وبعدَ العشاء نمضي ما تبقى في التحليل! وكانت من أمتعِ الأيامِ واللحظاتِ تلكَ التي قضيناها في ملاعبِ كرةِ القدمِ!



وكان إذا جاءنا المولدُ النبوي نتهيأُ لحجزِ مكانٍ نلتقي فيه للسَمَرِ، حتى إذا ما انتصفَ الليل خرجنا جميعًا للشارعِ نلعبُ الكرةَ حتى يُنادى للفجرِ!

وكان يخفقُ قلبي فرحًا إذا ما أقبلت الإجازة الصيفية، نمضي وجه النهار وغبش الليل نلعب الكرة دونما مللٍ، فإذا أويتُ إلى فراشي رحتُ أتذكرُ الألعاب والحركات المميزة التي لعبتها، والأهداف التي أحرزتها، أو أتخيل أهدافًا لم يكن لها مكان إلا في أوهامي.

وإذا هلَّ علينا هلالُ رمضان، بدأت حركة دائبة في التجهيز للدوري الرمضاني، وفي العيدِ نحملُ الكرةَ معنا لحديقةِ الشعبِ، ونلعبُ بملابسِنَا الجديدةِ! وهكذا كانت معنا في كل مكانٍ، وفي كل وقت، وقد انقضتْ تلكَ الأيامُ، وتركتُ الكرةَ -للأسف- ودخلنا في شيخوخةٍ مبكرة بسبب تركها، وعدم المداومة عليها..

وهذه آفة من الآفاتِ التي نقعُ في شِرَاكِهَا، ننشغلُ بأمرٍ فيُنسينا أمرًا آخرَ، فنصبحُ فريسة للزمن يرسمُ فينا تجاعيده الفاضحة،فما إن يضع الواحد منا قدمه على عتباتِ العقد الثالث؛ فتخاله رجلًا في الخمسينَ من عمُرِهِ، مُتَخَشِّبَ الجسدِ، بطيءَ الحركةِ، فاقدًا لروحها، يعيشُ بوتيرةٍ واحدةٍ، غارقًا في نمطيةٍ حادةٍ؛ تنتهي به لسُمنةٍ مُقعِدةٍ، أو جسد ذاوٍ هزيلٍ مرصَّعٍ بالأمراضِ والآفاتِ.



قرار

قد تتخذ قرارًا حاسمًا في لحظةٍ ما -بالرحيلِ مثلًا- كنتَ تخشى من تبعاته، فتضع كل مخاوفِ الأيامِ خلفَ عتبةِ المكانِ الراحلِ منه، فُيفضي بكَ القرارُ لطُرقٍ فسيحةٍ ما كانَ لكَ أن تطأها، ولأبوابٍ مُشرعةٍ ما كان لكَأن تَلِجَهَا، ولأشخاصٍ ما كانَ لكَ أن تراهم وتصحبهم، وعن فتوحاتٍ ما كانَ لكَ أن تمتحَ وتنْهَلَ من مَعِيْنِهَا؛ لولا توفيقُ الله لكَ أولًا، ثم تلكَ اللحظةَ التي خرقتَ فيها نمطيةَ الأيامِ، وتخوفاتِ النفْسِ وتردُّدِهَا، وعَقَلْتَ فيها خوفكَ ببابِ الله؛ متوكلًا عليه، قاصدًا أَلْطَافَهُ ومِنَحَه التي يهبها للسائرين.



الإلْفُ

هل تذكرتَ يومًا أنكَ كنتَ تنظرُ بعين الإكبار والإعجابِ لشيء تتمناهُ ولا تملكه.. فما إن حُزتَه وصارَ بينَ يديك، وتعاقَبَتْ عليه الأيام، خَفَتَتْ في نفسِكَ تلك اللوعةُ والاشتياقُ الذي كانَ في داخلكَ يومًا ما!!

إنه عامل الإلف الذي يُحيلُ كل شيءٍ للتقاعدِ، ويُغطي بِسَطْوَتِهِ على الرؤيةِ والجمالِ والنِعمِ، فتُسلبُ قيمتها من نفسكَ دونَ شعور..

هل تأملتَ يومًا روعةَ النداءِ الخالد بصوتٍ عالٍ يدوي في السماء إيذانًا بدخول وقتِ الصلاة.. قلما تجدُ منا من يستشعرُ تلك اللحظات؛ لكثرةِ سماعه وإلفه..!

ولو سألتَ رجلًا أمضى حياته في دول الغرب، لأخبركَ أنه يشتهي سماع صوت العجوز في مسجدِ القريةِ العتيق يجلجلُ بالأذان.



فعاملُ الإِلْفِ يجتاحُ حياتنا اليومية، ليجعل منا آلاتٍ تتحركُ دونَ شعورٍ، وبنمطيةٍ مُمِلَّةٍ دونما توقف، دون أدنى تأمل، دون إحساس بمواطنِ الجمال واكتشاف جواهر الأشياء التي في حوزتنا.. إننا بحاجة ماسة لانتفاضةٍ داخليةٍ ما بينَ حينٍ وآخرَ، نُزيحُ ترسباتِ الأيام، ونُمْعِنُ في التفكير، ونقوي حاسةَ الشعورِ، ونستمتعُ بالجمالِ حولَنَا، ونسعى لتوسيع نظرتنا للأشياءِ والأشخاصِ والحياةِ؛ بعينٍ صحيحةٍ من داءِ الإِلْفِ الذي تموتُ في ساحته الحياة، وتفقدُ فيه القيمُ دلالتها.



الفاتنة

ركضتُ وراءها.. فصفعتني، فتركتها ومضيت!

عشتُ فترة في غفلةٍ عنها؛ فوجدتني أبحثُ عنها مُرغمًا، تدفعني رياحُ الهوى، وأمنيات لا حدَّ لها، كنتُ أرمقها من بعيد، أتلَّصَصُ عليها، أتحين فرصة مواتية كي أحلِّق في فضائها، شعرتُ ببردِ الحبِّ يسري في جسدي، حاولتُ دفعه ما استطعت، كلما ذكرتُها تزدادُ دقات قلبي الغارقِ في بحرِ فِتْنَتِهَا وبذخِ جَمَالِهَا، أَخَذَتْ عليَّ كلَّ تفكيري، جَعَلَتْنِي مُتَيَّمًا بِحُبِّهَا، مُغرمًا بزينتها، مُغترًا بروعتها، مزهوًا بها.

ركضتُ خلفها وركضتْ، وحين شَعَرَتْ بقربي منها، مضتْ وتركتني صريعًا مضرجًا بدماءِ خيبتي.. فما يئست منها؛ فالمحبُّ لا يأسَ يسكنُ قلبَه..

كنتُ أرى تبرجها كالزئبق السحري بينَ أحضاني، أعدُّ أنفاسي وأوقاتي كي أحظى بظلالها التي تقيني من حرِّ الشقاءِ والبؤسِ،



جَمَعْتُ ما تبقى في فؤادي من حياة، ولملمتُ مشاعري وأخذتُ بخاطري، وقررتُ أن أُفْصِحَ لها عن حبي وأملي واضطرابي واشتياقي..

انتصبتُ واقفًا بلا حراك، أحدثُ نفسي:

أحظى بها، فلا أكاد أبلغ منها نشوة اللقاء، ولذة الوصال، حتى تنسلَّ من بين يَدَيَّ المرتعدتين، إذن لا بدَّ من الثبات حين لقائها، والتشبث بها.

فتحتُ عيني، فرأيتها أمامي بجمالها المدهش، فشهقتُ فرحًا وطربًا، حينها أيقنتُ بحبها ومدى إخلاصها، فمددتُ يديَّ نحوها، فصفعتني! ونظرتْ إليَّ بسخريةٍ حادة، وأشاحت وجهها عني، ومضتْ.

استيقظتُ من غفلتي وغفوتي على وقْعِ صفعاتها، وأيقنتُ أني إلى السرابِ أَرْكُضُ، وفي بيداء الوهمِ أَسير، ورحتُ أُتَمْتِمُ في نفسي:

دارٌ متى ما أضحكت في يومها
أبكـت غـدًا قُبحًـا لها مـن دارِ



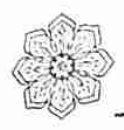
أمسية

حضرتُ ذات ليلةٍ أمسيةً مطولةً حولَ التنميةِ البشريةِ، وسُبلِ النجاحِ والتفوقِ، وصناعةِ المشاريعِ الصغيرةِ التي تجعلُ منك رقمًا صعبًا في سُلمِ رجالِ الأعمالِ!

حضرها عمالقةُ الفنِّ من أمريكا وبعضِ الدولِ العربيةِ، كانت الصالةُ المغلقةُ مكتظة بالشبابِ والفتيات، وكنتُ أشعرُ بحماسٍ -كغيري- أَلْهَبَ كل ذرةٍ في كياني، كان المدربُ الأمريكي يقولُ كلامًا مؤثرًا، ينطقُ الحروفَ كسهمٍ هندي..

وأضفى المترجمُ إلى الترجمةِ جرعة كبيرة منَ الحماسِ الذي يلتهب في داخله.. كانت ليلةً مختلفةً جعلتنا خارجَ العالم الذي يضجُّ خلفَ أسوارِ القاعةِ المغلقةِ، كنتُ أحسُّ حينها بغيبوبةٍ لذيذة!

لديهم قدرة أن يقنعوكَ أنكَ ستغيرُ العالم.. وأن بينكَ وبينَ الغنى لحظةُ عبورٍ بحاجةٍ لاجتيازها..



كانت القصص التي تروى عن طفرةِ النجاحِ التي حدثت لبعضِ الأشخاصِ، كفيلة بأن تمتلئ بها طاقةً لَحْظِيَّةً حدَّ الانفجارِ..

كانَ كلُّ شيءٍ في تلك الليلة مختلفًا؛ مؤثراتُ الصوتِ المصاحبةُ للحديثِ، وطريقةُ التصويرِ الحديثةُ من خلالِ طيرانِ طائرةٍ صغيرةٍ تغطي الحدثَ، الحماسُ الذي يُلْهِبُ المدرجاتِ، طريقة دخول المدرب للمنصةِ يذكرُكَ بدخولِ أبطالِ المصارعة..

كنتُ أتأمل عيونَ الشباب، ونظراتِهم، وتصفيقَهُمُ الحارَّ، تفاعلَهم حماسَهم، ووراء ذلك الشعور بالعجزِ والإحباط المتواري خلفَ كل ذلك..

إن جرعات الكبت والحرمان والشتات التي يعيشها الشباب تجعلهم يتشبثون بأي طريق سهل للخروج من الواقعِ الرابضِ فوقَ أحلامهم، بحاجةٍ لأي منفذٍ للفرح، والشعورِ بالانتصار!

إِنَّ كل ما قيل ليلتها هو أشبه بأمبولة (فولتارين)، تمنحكَ الهدوءَ المؤقتَ، تلك مثلها؛ نجاحٌ مؤقت، طاقة مؤقتة، حماس مؤقت، انتصار مؤقت، ثم يتضحُ لنا أنَّ الواقعَ ليسَ ما قيلَ لنا، ليسَ تلكَ القصص والحكايات التي سمعناها عن أشخاصٍ تخطو عتبة الفشل وباتوا مضربَ المثل!.. الواقع خلاف ذلك.. والغنى بينكَ وبينَهُ مفاوزُ، والنجاح بحاجةٍ للعملِ والجهدِ، والبناءُ بحاجةٍ للتشييدِ والمتابعةِ، وتغييرُ العالَمِ بحاجةٍ للبدءِ بالنفسِ، والطاقةُ والشعورُ والقوةُ التي تأتي فجأة سُرعانَ ما ترحل.. مالم يصدقه



الواقع.. بطريقةٍ معقولة لا تتكئ على العاطفةِ وإثارةِ العواطف وإلهابِ الحماس، والعيش في غيبوبةٍ لذيذةٍ تُسَرِّي عنا شيئًا من أحمالِ الواقعِ المثقلِ بالظلام.



انتصار

كل واحدٍ منا قد يمرُّ بلحظةِ ضعفٍ، أو يَجِدُ نفسَهُ في حالةٍ من الصعوبةِ والألمِ، وقد يعتقد أن الحياة ما وجدت إلا لتكونَ مسرحًا لعقابه وتوبيخه.. وقد نُصَابُ -أيضًا- بشيءٍ من (النقص) بمفهومه الواسع، -أحيانًا- لم نكن سببًا فيه، فإما أن نُسلمَ به كواقعٍ يَأْبَى الرحيل، ونتماهى معه، ومن ثمَّ نَخْلُقُ مساحةً واسعةً من التبريرِ تُبْقِيْنَا على قيدِ هامشِ الحياةِ.. وإما أن نتخلصَ مما نعانيه من نقصٍ أو فشلٍ أو صِعابٍ وألمٍ، بإنجازاتٍ وأعمالٍ تجعلُ من الماضي شيئًا من ذكرى عتيقةٍ، طواها النسيانُ في معطف اللاعودة.

فمريم العذراء استنكرت -ابتداءً- أن يجيء ابْنُها إلى الدنيا من غيرِ أبٍ، ولكنه جاءَ ورفعَ كلمةَ التوحيدِ.

وعاشَ نبينا محمد يتيمًا، لكنه غيَّرَ الدنيا، وقاومَ تياراتِ الحياةِ العنيفةِ، وباتَ رمزًا للعظمة، ومثالًا للإنسانيةِ والقيمِ..



وكانَ سقراط -أبو الفلسفة الإنسانية- قبيحَ الوجه -كما قيل، ولكنه كانَ أنشودة (أثينا) يتغنى بها الجميع.

وكان بلال نسيًا منسيًّا في رمالِ مكةَ، ولكنه أصبحَ أيقونةً للصبرِ، ومثالًا للامتياز والتحدي..

يقول رجاء النقاش:

«إن الحياةَ لا تعطي سِرَّهَا وسعادَتَها بسهولةٍ، وعلى الإنسان أن ينظرَ إلى حياتِهِ على أنها مشروعٌ يجبُ أن يعمل على تحقيقه وتنفيذه».

ولقد عاشَ الأديبُ العالمي (تشيخوف) حياةً صعبةً قاسيةً، وَصَفَهَا هو نفسُهُ مرةً فقال: «كان أبي من رقيقِ الأرضِ، وكنتُ أشتغلُ بالبيعِ في أحدِ الحوانيتِ، ونشأتُ على احترام السادةِ، وتقبيل أيدي القساوسةِ، وكنتُ كثيرًا ما أُجْلَدُ وأَدُوْرُ هنا وهناك، وأضطرُ إلى النفاقِ؛ لا لشيءٍ إلا لشعوري بالتفاهةِ وضآلةِ الشأنِ».

ولكنه لم يقف ولم يستسلم، فهو يقول:

«لقد بذلتُ مجهودًا عنيفًا لأَعْصِرَ مشاعرَ العبوديةِ من نفسي قطرةً قطرةً.. حتى استيقظتُ ذاتَ صباحٍ جميلٍ فاكتشفتُ أن عروقي لم يعد فيها أثر لدمٍ ذليلٍ، وأنها تفيضُ بدمٍ إنسانيٍّ حقيقيٍّ».

فابحث عن نفسكَ، ولا تستسلم أبدًا للذةِ الفشلِ.. تلكَ اللذةُ الخطرةُ التي أوقعتنا في شباكها.



وددتُ لو أني أراكَ في المنام

يا رسول الله: وددتُ لو أني أراكَ في المنام.. لبُحْتُ لكَ بما يعتريني من همومٍ وآلامٍ وأحزانٍ على أمتكَ، خواطرُ وهمومٌ تدور في رأسي وتستقرُّ في قلبي، عَجِزَ القلمُ عن بيانها، وظلَّ شاخصًا لا يلوي على شيء، ومدادي لم يَفِضْ، وعيناي تبكيانِ، بيْد أنَّ الدمعَ لم يبرحْ موضعه، ارتضيتُ لنفسي أن تكون مأوًى لأحزانِ أمتي وآلامها؛ فأشعر بما أشعر به لعجزي عن إشراقِ شمسِ الآمالِ التي تتلهفُ لدفئِهَا وعطائها نفوسٌ طَالَ ليلها واستمرَّ أنينُهَا.

يا رسول الله: لم تعد لنا قوةُ الحبْلِ المجدولِ، أو منعةُ العروةِ الوثقى، لا انفصامَ لها. أصبحنا مثل الخرزاتِ المفروطة، وقد فقدت الخيط الذي ينتظمها فتصبحُ قلادةً لها قيمتها، أو مِسْبَحَةً يُذكرُ عليها اسم الله. ولهذا هُنَّا واستهانَ بنا العالَم.

يا رسولَ الله: لم نَعُدْ كالبنيانِ المرصوصِ يشدُّ بعضه بعضًا كما وَصَفْتَ، وبِتْنَا كالعهنِ المنفوشِ في تفرقِنَا وتشرذمِنَا وضعفِنَا،



ونحنُ الغثاءُ الذي حذرتَ منه. هدمْنا البنيان، وباتَ يقتلُ بعضُنا بعضًا. وأمتك تعصفُ بها أحداثٌ تُرمض القلبَ، وتثير دفائنَ الهم.

يا رسول الله: لو رَأَيْتُكَ لأخبرتُكَ أننا نعيش في زمانٍ رَغِبْنَا فيه عن دينِنَا، وَنَسِيْنَا فِيْهِ تاريخَنَا، ومَزَّقْنَا أمجادَنا الخالدةَ، وحضارتَنا المُلهمةَ، بمخالبِ التخلفِ والركونِ إلى الغير!

يا رسول الله: إننا حائرون، نشكو ونحسنُ الشكوى، ونبكي كما تبكي الثكالى، ندعوا الله ونسأله النصر، ونحن نخذله في أنفسنا وفي بيوتنا وفي شعوبنا وفي أموالنا وفي أهلينا وفي أولادنا.

يا رسول الله: إننا الغثاءُ الذي أخبرتَ عنه، والقصعةُ التي تتداعى عليها الأممُ من شتى أصقاع الأرض!

ونحنُ أمةُ المليارِ، أما لو كُنَّا مليارَ ذبابة تطنُّ معًا لمنعَ طَنِيْنُهَا العالَمَ منَ النومِ، ولو كنا مليار بعوضةٍ لما استطاعَ العالَمُ أن يكفَّ عن الهَرْشِ!!

يا رسول الله: غابتِ العدالةُ، وحلَّ الظُّلمُ، ونطقَ السفهاءُ باسمكَ، وتوارتِ القيمُ التي جئتَ بها، لقد تَرَكْنَا الروحَ التي بعثتها في مَنْ حولَك، وانتشر شَذَاهَا في الآفاق، وذهبنا نتشبثُ بشكلياتٍ لا قيمةَ لها!!

لقد أهدرنا كل شيء، وباتت دماؤنا رخيصةً حدَّ السيلانِ!! وددتُ لو أني أراك في المنام؛ لتشرقَ شمسكَ في سمائي المتلهفة إلى دفئك وعطائك.



ثَمِلٌ في الطائرة

بعد أن ارتفعت بنا طائرة اليمنية متجهة من قاهرةِ المُعِزِّ إلى أرضِ الوطنِ، أوى الركابُ إلى مقاعدِهِم، وأسلموا أنفسَهُم للراحةِ والنومِ من شدةِ الإعياءِ والإرهاقِ الذي لحقَ بهم، ثمَّ لم تمضِ بنا ساعةٌ ونحن نائمونَ في السماءِ، إلا وارتفعت أصواتُ جلبة من وسطِ الطائرة، استيقظَ لها النائمُ، ووقفَ لها المُستيقظ، كان ذلكَ صوت شابٍ شربَ الخمرَ حتى ثَمِلَ، وصعدَ إلى الطائرة بتلكَ الحال، طاشَ عَقْلُهُ، وراح يهذي بلسانٍ ثقيلٍ، وأمسكَ الناسُ على قلوبِهم من الخوف؛ كلما هدَّدَ أن يكسرَ زجاجَ الطائرةِ، كنا جميعًا نفكرُ بشكلٍ سلبيٍّ، ونتصورُ المآلَ الكئيبَ في حالِ حدوثِ شيءٍ، وأننا ذهبْنا ضحيةَ طيشِ شابٍّ، وإهمالِ آخرين!

تطوع أحدُ الركابِ لتهدئته، ولما أصرَّ في تهديده الذي أفقدنا الأمن، والإحساس بالطمأنينة؛ ضربه ضربًا مبرحًا، علّه أن يرجع لِوَعْيِهِ الغائبِ، وَتَذْهَبَ عنه سكرةُ الجنونِ التي سَلَبَتْ عَقْلَهُ.



ما لفتَ نظري في الحادثة، ما أقدمَ عليه بعض الركَّاب من تصويرهم للشاب، وانتهاكهم لحقِّ إنسانٍ مذنبٍ مخطئٍ، استسلم لرغباتِهِ، والفرحِ في نشرِ ثقافةِ الفضيحةِ وهتكِ الستر، وإشهارِهِ على رؤوسِ الخلائقِ في أدوات التواصلِ الاجتماعيِّ، واغتيال حقه في العيش بالسترِ الجميلِ.

وكان موقف المضيفة في قمة الوعي واحترام حقِّ الإنسان.. وقفتْ متحدثةً بين الركابِ قائلةً:

«ليس من الشرف أن نسعى لفضحِ الآخرين، والتشهير بهم، من رجل لا يَعِيْ ما يفعلُ، ولعلَ الله أن يتوبَ عليه، فلماذا تهتكونَ ستره؟!».

وكانت خلفي امرأةٌ مهتمةٌ بحقوقِ الإنسانِ، كادت تتميز غيظًا وهي ترى الشابَ يُضربُ من بعضِ الركابِ، كانوا يقولونَ لها:

نحن نحمي أمننَا وأمنَ المئاتِ في الطائرة، ومفسدةٌ واحدةٌ يقومُ بها وهو غائبٌ عن الوعي سندفعُ ثمنها جميعًا، وما يفعله من تهديدٍ لأمنِ المسافرين كارثة.

التفتتَ بغضبٍ واستخفافٍ، وقالت: ومع ذلك لا ينبغي أن يُضربَ، الكارثةُ نحن الذينَ نفكرُ بهكذا طريقة؟!

أما أنا فكنتُ أحاولُ النظرَ لعينَيْهِ المُتعبتين التائهتين، وجسده الذاوي، ونظرة الناسِ إليه.. كنتُ موقنًا أنَّ السترَ لم يُكشفْ إلا بداءِ التمادي، كنتُ أتمتمُ بقلق أن لا نُبتلى، ودعوتُ الله له بدعواتِ



صادقةٍ، كانت لحظةَ ضعفٍ مريعٍ يعيشُهَا الشابُّ، كل ذلكَ إرضاءً لشهوةٍ عابرةٍ، ولذةٍ زائفةٍ، ورأيتُ أنه من الواجبِ أن نظلَّ ندعوا الله أن يسبلَ علينا سِتْرَهُ الجميلَ..

فهو وحده يعلم أننا مُتْخَمُونَ بذنوبٍ لا يعلمُها سواه؛ لكنَّ سِتْرَهُ الجميلَ يَحُولُ بين إظهارها، ونظل في الستر الإلهي نتقلبُ بنعمةٍ لا يعرفُها إلا من ابْتُلِيَ بارتفاعِ حُجُب السترِ الإلهيِّ عنه!



شيءٌ من القول

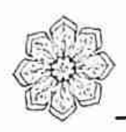
يقولون: إنَّ المرءَ حينَ يحسُّ بالخطرِ ويكون مُعَلَّقًا على حافةِ الانزلاقِ إلى هاويةِ العدمِ السحيقِ، تُثَارُ حواسُهُ إراديًّا من أطايبِ الحياةِ التي ينهشُهُ قلقُ زوالُها، أو.. هكذا.

يقولونَ أيضًا: إنَّ المرءَ حينَ يحسُّ بعنفوانِ الكرامة في لحظةٍ ما، يصعبُ عليه العيشُ بعدَهَا تحتَ أقدامِ السيدِ المُطاعِ؛ ولهذا تُنصبُ له الكمائنُ في طريقِ العبورِ..

يقولون: إنَّ الإنسانيةَ في الإنسانِ حالُها كحالِ الإيمان، يزيدُ وينقص! فتعهد إنسانيتكَ قبلَ أن تتصحَّرَ، وتصبحَ موطنًا للجفاف..

يقولون: إنَّ الإنسانَ الضعيف يحبُّ الأقوياء، وتراه في أقصى لحظاتِ الحرجِ والضياعِ والضعفِ التي يحياها يتيهُ فخرًا بالقوي، لقدرته البارعة في سحقِ إنسانيته وهدمها..

يقولون أيضًا: إنَّ المرء كلما صرفَ الحبَّ لامرأةٍ أخرى، ينحدرُ رصيدُ الحبِّ لزوجتِهِ التي تراهُ كلَّ شيءٍ في الوجودِ،



ويراها -هو- شيئًا صغيرًا في حياته.. بحاجةٍ للاتساعِ المُفرغِ من قيودِ الحقوقِ والواجباتِ..

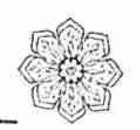
يقولون: قد نضطرُّ لِأَنْ نُخفيَ الألمَ المتواريَ خلفَ قلوبِنَا، بشيءٍ منَ النسيانِ المتمثلِ بالتظاهرِ بالحياة ..

ويقولون: إنَّ الإنسانَ التعيسَ مَنْ تفرَّغَ لمطاردةِ ذكرياتِهِ التي تسوقُهُ للفناءِ. لا يجبُ عليكَ أن تعيش رهنَ الاعتقالِ لماضٍ سابقٍ مهما كانتْ قَتَامَتُهُ، ادفنه في أقربِ مقبرةٍ من المقابرِ، وانطلقْ.

يقولون: إنَّ لحظةَ الألمِ هي لحظةُ ميلادِ الأديبِ الإنسانِ، المُختلِف عن سواه في نظرته وذهنِهِ المتوقدِ، وإحساسِهِ العميقِ بأسرار الحرفِ والكلمةِ، وتذوقِهِ للمعاني الآسرةِ للوجدانِ، وتوحدِ أفكارِهِ وخواطرِهِ ورؤاه بموسيقى الحياة التي تعزفُ ألحانَ الشجنِ والحنين.

يقولون: أَنْ تجعل مِنَ الألم حافزًا لتحدي المجهولِ القادمِ مِنْ رحمِ المأساةِ؛ فتلكَ قدرةٌ عجيبةٌ تَنمُّ عن فَهمٍ لفلسفةِ الألمِ واحتوائِهَا، وليستِ المشكلةُ في الآلامِ التي تعتريكَ وتنتابُكَ، وإنما في القدرةِ على التكيُّفِ معها، وتحويل صحرائها لواحاتٍ يعودُ نفعُها على القلبِ المكلومِ.

تكمن العظمة في قدرتكَ على تحويلِ المحنِ إلى مِنَحٍ، تقولُ: (هيتَ لك).



يقولون: عادةً في الزمنِ الرديءِ؛ يُسارعُ الصغارُ إلى احتلالِ مواقعِ العمالقةِ، يُخيَّلُ إليهم أنهم وصلوا، وما وصلوا. ويظلُّ مكانُ العمالقةِ العالي خاليًا؛ لأنَّ الصغيرَ لا يكونُ عملاقًا، وإنِ اعتقدَ خلافَ ذلك.

يقولون: أحيانًا تأخذُ القلمَ لتكتبَ شيئًا أو تُسطِّرَ فكرةً فلا تستطيع! وتشعرُ بالعجزِ، وكأنكَ حديثُ عهدٍ بقلمٍ، فإذا شعرتَ بذلك فلا تهتم؛ فما هو إلا احتباسٌ كتابيٌّ يمنعُ صاحِبَه من كتابةِ كلمةٍ واحدةٍ، اتركِ القلمَ جانبًا، واقرأ في كتابِ الكونِ المنظورِ، حتى تتشبعَ بماءِ اليقينِ، ويصفوَ خاطرُكَ بوهجِ النظرِ والتأملِ، وتَدِبَّ فيكَ روحُ الحياةِ مِنْ جديدٍ، عندها عُدْ لقلمِكَ واكتبْ به ما شئتَ، سَتَجِدُهُ كجوادٍ عربيٍّ أصيلٍ.

يقولون: عندما تريد أن تكتبَ ما تراه (حقًا) لا تلتفتْ للوراءِ؛ لِأَنَّ التفاتتكَ سببٌ للوقوفِ.. دعْ قلمَكَ يُسطِّرُ ما يُمْلِيْهِ الضميرُ، لو ظَللتَ متوجسًا خائفًا؛ فاعلم أنكَ لا تستحقُ القلمَ كسلاحٍ، لأنكَ لم تُكرِمْهُ كفارسٍ.

شيء عن وطن

غَادَرَ الوطنَ فوجَدَه هناك ..!

اتصلَ بي آخر، قال لي: هل غادرتَ منفاك؟!

قلتُ له: ما زلتُ أبحثُ عن وطن ..!

وثالثٌ يقــول: حبُّ الوطنِ من الإيمان، ورابعٌ يصــرخُ: الإيمانُ يتجلى في وطــنٍ يُكرم فيه الإنسان، وتتربعُ فيه الأحلام!

بعد لحظـاتٍ من الصخبِ والجـدل والعِراك، أبصرتُ الوطنَ يتشــبثُ بالريح ليُحملَ خِلسةً في ظلامِ الليلِ الطويلِ حيثُ الوطنُ.



فوضى الألم

وحيدًا بينَ أحراشِ الألمِ أَسِيْرُ..

أفكرُ في مستقبلٍ مجهولٍ في وطنٍ يكتنِفُهُ الظلامُ، هبطتُ عندَ مقهًى عتيقٍ أحتسي كأسًا من الشاي، أنسى من خلاله حِمْلَ الأيامِ.. وأُرَوِّضُ الضعفَ المتوحشَ في داخلي، وأزيحُ فوضى الألمِ في قلبي الصغيرِ.

التفتَ إليَّ شيخٌ مسنٌ، كأنه قرأَ ما يدورُ في خَلَدي، كأنَّه أحسَّ بنوباتي وهمومي، ويأسي وجنوني، وخوفي من المجهول. قال لي:

الإنسان الذي يبتكرُ آلامه ويستعيدُها دائمًا؛ رجلٌ لا يصلحُ للمستقبل، نحنُ في زمنٍ بحاجةٍ فيه للقوةِ التي تكسبكَ مناعة في دفنِ ركامِ الآلامِ، وتمنحكَ الثقةَ للنجاحِ في ظلِّ وطنٍ مصيرُهُ غيرُ معلومٍ.

ثمَّ قامَ ومضى!!!



بثمنٍ بخس

باعوكَ يا وطني.. بثمنٍ بخسٍ!

ألقوكَ في جُبِّ الآلامِ والدمارِ؛ ليعودوا للبكاءِ والنحيبِ عليك!!

كلُّ يُشيرُ على الآخرِ بأصابعِ اللومِ والاتهامِ، هُو مَنْ ألقاكَ، لا.. بل أنتَ من أسْقَطْتَه! لا.. بل أنتم من حاولَ قَتْلَهُ، ومنعناكم! صاحَ آخر.. جميعكم ألقاه في البئرِ العميق ليهنأ من بعده بالنور!

على فراقكَ تبيضُ العينُ حَزَنًا، يتقطعُ القلبُ ألما.. ونأملُ العودةِ!!

كل يومٍ عندَ الصباحِ وفي المساءِ نظلُّ نتلمَّسُ الحياة؛ علَّنا نسمعُ مَنْ يُخْبِرُنَا بقدومكَ مِنْ جديدٍ،بعد أن تتخلّصَ مِنْ محنتِكَ وتنتصرُ ممن أراد قتلكَ، ورماكَ في الجُبِّ تُصارعُ الأهوالَ وحدكَ إلا من الأنين!!



اشترتك قافلةُ «العَبث» جميعهم يريدكَ أن تكون خادمًا لديه! من باعكَ بثمنٍ بخْسٍ لا ينسى أن يخرج ما بين فينةٍ وأخرى يبكي فراقك ويقصُّ (مثل العجائز) كيفَ غُدرَ بك!

باعوكَ يا وطني:

ولم يفتقدكَ إلا من يعتصمُ «بالصبر الجميل» ليروكَ عزيزًا عظيمًا، ينعم المحبونَ فيكَ بالرخاءِ والعدلِ والحبِّ والأمل!

عند عودتكَ قل لمن باعكَ وخانكَ وغدرَ بك: (لا تثريبَ عليكم) على أن تعودوا خُدّامًا للذي بِعْتُمُوْهُ!



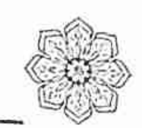
الموت ونحن

في الصغرِ كان ذكر الموتِ يُخِيْفُنَا، كان لا يأتي إلا في جنازةِ شيخٍ جاوزَ السبعين، أو مع شخصٍ هدَّه المرضُ وأَنْهَكَهُ، أو في حادثِ سيرٍ عابرٍ.. وقلَّ أَنْ تسمعَ مَنْ يقولُ: «فلانٌ مات، توفي فلان».

أمَّا اليوم، فباتَ يأتينا بصورٍ وأشكالٍ لم نكن نعرفها، ولم نسمع بها من قبل، لم يعد يأتي الموت زائرًا لمن تعدَّى السبعين ويقفُ بصمتٍ على أبوابِ الثمانين، بل أصبحَ يرافقُ الأطفال والشباب والشيوخ، الجميع بلا هوادة، ودون استثناء.

يأتينا الموت على هيئة لُغمٍ أرضيٍّ زرعته يدٌ آثمةٌ، ويأتي في صورةِ سيارةٍ مفخخةٍ يقودها أعمى، وقد يأتي في ليلةٍ هادئةٍ على شكْلِ رصاصةٍ طائشةٍ تنهي قصة الحياة.

يأتي في صورةِ قصفٍ مُريعٍ فيحيلُ المئات من الأطفال والنساء والشباب والشيوخ لذكرى مظلمةٍ قاسيةٍ تأبى النسيان.



ويأتينا في هيئةِ وباءٍ مميتٍ، تخلفه -عادةً- الحروبُ القذرةُ التي يجدُ الموتُ فيها ضالته!

أصبحَ الموتُ عنوانَ الحياةِ، يتصدَّرُ شاشةَ الإعلامِ، ويُكتبُ بالخطِّ العريضِ في جبينِ الصحفِ السيارةِ، وتتناقلُ أخبارَهُ الألسنةُ والمجالسُ..

تعددت صوره كما تعددت مسمياته، ويبقى الموتُ كما هو، لا تؤثرُ فيه الصورة ولا المسميات.

وهو الذي يجمعُ بيننا، بطرائقه المتعددة، ومسمياته المختلفة، ضحاياه مختلفون، كثيرونَ بحجمِ العويل والحزن.

لم نعد نسمعُ سوى صوتِ الحياةِ الخافتِ ينعي ضحايا الموت.. ضحايا الموت هم أحياءُ الأمواتِ الأحياءِ، يرحلونَ ليبقى الموتُ بجانبِ الأمواتِ لمواصلة المسير.



مطر مطر

تهامسَ القومُ، ما بالُ المطرِ؟!

أينَ المطرُ؟!

ما شأنكم والمطر؟ دعوا السماءَ وشأنها، هتفَ رجلٌ عجوزٌ يفترشُ قارعةَ الطريقِ! تفشى الجفافُ، وأغلقتِ السماءُ أبوابها، وهلكَ الزرعُ، وتلاشى الحلمُ، وبكى الطفلُ، وباتتِ الحياة تسيرُ بلا معنى، وباتَ حديثُ الناسِ عنِ المطر، وعنِ البقعةِ المرتفعةِ، الممتلئة بالماءِ والزرعِ والحياةِ والحلمِ!

في مكانٍ بعيدٍ عن مكاننا، تجرأَ أحدُهُم، وأشعلَ لهيبَ المطرِ، بدأتِ السحبُ تتجمعُ للمرةِ الأولى منذُ أن غُلِّقتِ الأبوابُ. فإذا امتلأتِ السحبُ مَطرًا، أراقتْه على الأرض! وبدأ الناسُ يتهامسون بصوتٍ مسموع، نحنُ والمطر، إمَّا أن ينزلَ، أو نصعدَ إليه!

استجابَ المطرُ، وأرسلَ الماءَ قليلاً قليلاً؛ ففرح القومُ، وغضبَ آخرون، ضحكَ الطفلُ، وراحَ الشيخُ المُسنُّ يهذي عن



جنونِ الطامحين! توسعتِ السُحُبُ، وانتشرَ أَوَارُها، عمَّ المطرُ أرضَ الجفافِ، كنا نرقبُ المطرَ بصمتٍ، نراقبه عن كثبٍ، تداعتِ الأصواتُ المستأجَرَةُ، تحدثُ الناسَ أنَّ أرضنا لا تشكو الجفافَ، وأنَّ المطرَ الذي سقى تلكَ البلاد البعيدة، لا حياة فيه!

استيقظتِ المدينةُ من غفوتِهَا، وقد تكومتِ السحبُ فوقَ رؤوسِنا، وبدأ الناسُ يهتفون: مطر مطر، خرجَ الناسُ يطلبونَ الماءَ، واختبأ آخرون، ملأ المطرُ كلَّ المدنِ، واستبشرَ الناسُ بوداعِ السنواتِ العجافِ، ودفنِ الجفافِ في بئرٍ عميقةٍ، فلن تُمحلَ الأرضُ بعدَ مطرٍ كهذا، هتفَ القوم.

باتتِ الأرضُ مليئة بقيعانِ الماءِ، بدأ الزرعُ يُطلُّ برأسِهِ، وَبِتْنَا نرفلُ بحياةٍ جديدةٍ نزلتْ معَ المطرِ القادمِ من هاتيكَ السماءِ البعيدةِ!

لم يحتملوا رؤيةَ المطرِ، أضحى المطرُ يؤرقُ حياتَهُم، يُهددُ أحلامَهُم، جاءُ المطرُ لِطَمْسِهِم، كانوا والجفافَ وجهانِ لعذابٍ واحدٍ، ولهذا هتفوا: نحنُ أو الطوفان! أردناه مطرًا يغسلُ الأوضار، وأرادوه طوفانًا يسحقُ المنصتين لأغنيةِ المطر، مطر مطرْ..

باتَ المطرُ مُطاردًا، بعدَ أن طُوقتِ الأرضُ التي وقعَ فيها، تسربتِ المياهُ للمنازلِ، بعد أن فتحوا قنواتِ المياهِ؛ لتفريقِ البحيرات المجتمعة، تضررَ الناس، بكى الأطفال، صرختِ النساءُ بجزع، اللهم نرجوكَ حياة (ما قبلِ المطر)!



ورفعَ الناسُ مظلاتهم خوفًا من نزول مفاجئ للمطر، ولم يعد يتهامسونَ كما كانوا من قبل، لم يعد ينشدونَ بصوتٍ حالم:

(مَطَر..مَطَر..

أتعلمينَ أيَّ حُزْنٍ يبعثُ المَطَر؟

وَكَيْفَ تَنْشج المزاريبُ إذا انْهَمَر؟

وكيفَ يَشْعُرُ الوَحِيدُ فِيهِ بِالضّيَاعِ؟

بِلا انْتِهَاءٍ -كَالدَّمِ الْمُرَاقِ، كَالْجِياع،

كَالْحُبِّ، كَالأطْفَالِ، كَالْمَوْتَى- هُوَ الْمَطَر!).



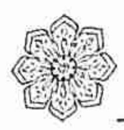
المنقذون

عندَ الفجْر جاؤوا على حافلاتٍ مُدججةٍ بالموتِ، يقودها العَمَى والجنونُ، كانَ التوقيتُ مرعبًا، ينتقلونَ من مكانٍ لآخر، بإيقاعٍ متسارعٍ مخيفٍ، وسادَ صمتٌ فاجعْ؛ كأنَّ وحشًا أسطوريًّا قرَّرَ الخروجَ من قبوهِ إلى قلبِ المدائنِ!

كنَّا نتابعُ مسيرَهُم، نسترقُ أخبارَهُم، لا حديثَ في المدينةِ إلا عنهم، وتمتماتٍ مخنوقةٍ عنِ السقوطِ والخرابِ، وعودة الظلامِ والتاريخِ!

يدخلونَ المدينةَ.. فيأخذونَ مفاتِحَها وروحَهَا وتاريخَهَا، ويطمسونَ معالمَهَا، وعندَ انطلاقهم لبقعةٍ أخرى تضجُّ بالحياةِ، يدوسونَ الحياةَ بأقدامِهم، وبجنونِ العابثينَ تمضي مسيرتُهُم، ويصرخونَ بحزمٍ: جئنا لإنقاذكم!

ولم تمضِ بضعةُ أيامٍ حتى اكتملتْ ملامحُ الظلامِ، وسقطتْ كلُّ المدائنِ؛ وانهارت معها الأحلامُ، وفي ذلكم التاريخ بدأتْ



ساحُ الخرابِ تَتَّسِع؛ وشُيدتْ للموتِ المساكنْ!

تسلَّموا مفاتيحَ مدينتنا، وصمتَ الدمعُ، واستطالتْ ليلةُ السقوطِ والخُذلانِ، وشُوهدَ القمرُ يبحثُ عن سُحبٍ كثيفةٍ يختبئُ خلفها!

ونفخَ أحدهم في بوقٍ نحاسيٍّ؛ فتجمعَ الناسُ والرعاءُ وحَمَلةُ الطبولِ من كلِّ مكانٍ.. وأخرجَ الآخرُ رقعةً مرقومةً بالدم، فيها خطابُ النصرِ المظفَّرِ؛ لِسَلِيْلِ بيتِ المُلْكِ والسيادةِ؛ من حَمَلَ على عاتقه معركة الإنقاذ والتصحيح!

قُرِئَ الخطابُ، وارتفعَ دخانُ المباخرِ أعمدةً في السماءِ، واشتدَّ قرعُ الطبولِ؛ تُلقي في القلوبِ هيبةَ الفتحِ العظيمِ! واستمعَ الناسُ ولم يفهموا شيئًا، لكنهم صفقوا بحرارةٍ.. وبدتْ على وجوهِهِم ابتسامةٌ باهتةٌ تَشِيْ بالسذاجةِ، وعيونُهُم تحدقُ في فوهةِ البنادقِ المُشْرعة نحوهم!

وهكذا، أطبقَ على رقعةِ المدائنِ ضبابٌ كثيفٌ، فانطفأت وذبلت، ولم تعد برَّاقة كما كانتْ! ووطئ عليها ظلامٌ طويلٌ يَسْحَقُ الأحلامَ وينسفُهَا نسفًا.. وكانتْ قصةُ الإنقاذِ طويلةً متماديةً، تقطرُ دمًا وغدرًا وخيانةً وانتقامًا!

وبعد سنواتٍ ثلاث؛ هل ما مرَّ من الحياةِ أصعبُ، أم تلكَ الظلمةُ المغبرةُ التي عشناها ذات خطاب، سألتُ نفسي؟!



وفي سبتمبر غادرَ الوطن ولم يعُد بعد!

هنا شيءٌ من الألم!

لم أر في حياتي ألمًا مستديمًا، بمعنى أني لم أر في حياتي ألمًا يُمارسُ الألمَ فوقَ حياتنا باسم الانتصارِ والإنقاذِ وإزهاقِ روحِ الألمِ!!

هذا ما عشناه في يومٍ ما،

ولقد مرت بنا لحظاتٌ قاسيةٌ، في الأيامِ السوداءِ التي تَلَتْ سقوطَ الوطنِ، كنا نعيشُ في حالةٍ من البؤسِ لا تُحدْ!

منذُ طلوعِ الفجرِ،يفرُّ النومُ من عيني، ليس ثمة مكانٍ ألتجئُ إليه، ينبعثُ النهارُ في سطحِ المنزل، ليعلن انتهاءَ الهروبِ اللحظيِّ من حرِّ المنازلِ ونيرانِهَا!

في النهار، كانت الحياة تقفُ بكلِّ عجزٍ، أغلقتِ المدراسُ أبوابَهَا، وأغلقتِ العديدُ من أماكنِ العملِ، واختفى كلُّ مظهرٍ من



مظاهرِ الحياةِ، وباتت شوارعُ المدينةِ خاويةً لا تسمعُ لها رِكْزًا، فتربعَ العجز والتيه.

ولا حديث إلا عن مسيرةِ الموت التي أتت تَهَبُنَا الحياة، كما يزعمون!

كنتُ أجلسُ في المنزلِ، أنتقل من مكانٍ لآخرَ، أُلَاحِقُ هبوبَ الرياحِ التي تخطئُ طريقَهَا لتحطَّ قليلًا فيَ إحدى النوافذِ، ثم سرعانَ ما ترحلُ، وتبقى جهنمُ تطوقنا بلهيبها..

كنتُ أنتظرُ قدومَ العصرِ، لأمضي إلى زاويةٍ من زوايا البحرِ جَعَلْتُهَا لي ملاذًا أجمعُ فيها بقايا نفسي المحطمة، وَأُلَمْلِمُ بقايا الأحلامِ التي بدتْ بلا ملامح، وأفرغُ الحزنَ هناك، وأتحسسُ سياطَ الوجعِ، وسطوةَ الغيابِ التي داهمتنا فأخذت منّا مَنْ كُنَّا نأنسُ بقربهم.

فالبحرُ مكانٌ تتهاوى فيه الأوجاعُ، وبجوارِهِ ألتمسُ قوةً لقلبي المرتجفِ، وأمامَ عظمتِهِ تُزاحُ جميعُ التفاهاتِ التي تنسينا لذةَ الحياةِ، وجبروتِهِ يهونُ علينا تسلطُ الإنسانِ الذي غَفِلَ فاستغنى فطغى.. وسكونِهِ اطمئنانٌ للروح، وهيجانِهِ انتصارٌ للنفسِ، وبينَ السكونِ والهيجانِ تكمنُ عظمةُ البحرِ المُعجِزِ.

أمامَهُ وقفَ المعتلونَ طلبًا للشفاءِ، والتائهونَ المهدورون، يطلبونَ الرؤيةَ للمسيرِ. ويجدُ المظلومُ فيه سلوتَهُ، ويقصدُهُ الباحثونَ عن النورِ والحضورِ، وهي البقعة الأنقى للحوار مع الذاتِ الشاردةِ.



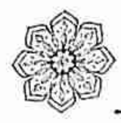
في عنفوانِ هيجانِهِ يمنحكَ الحياةَ؛ لأنه يخلقُ في نفسكَ شكلًا من أشكالِ الثورةِ والصمودِ، تزيحُ عنكَ انتفاخَ الطغيانِ الذي أهدرَ الحياةَ والإنسانَ؛ الجاثمَ فوقَ أحلامِنَا كالصخورِ الناتئةِ على ضفافِ شاطئِ مدينتِنَا اليتيمةِ.

وفي سكونِهِ رضًا وارتواءٌ، وبعثٌ للروحِ والآمالِ والأحلامِ، وسلامٌ ينسكبُ بين جوانحك؛ فترى الكونَ بعينٍ لا ترى إلا الله والجمالَ والسلامَ.

ولهذا، كنتُ أصغي إلى نجوى البحرِ، وأجترُّ الغياب الذي طالَ يدَ الأحلامِ، ولم يكن يَشُوبُ متعتي سوى هاجسٍ مِنَ القلقِ، على وطنٍ يموتُ، وإنسانيةٍ تَمَرَّغُ في الضياعِ، وأن يستمرَ القادمونَ من الكهوفِ في سحقِ أحلامِنَا!

كنتُ ضائعَ الحيلةِ، مبعثرَ الخواطرِ، ممزقُ الرؤى، رياحُ العدمِ تمتزجُ في صدري، ووحدي أقاومُ، أتلقى الصدماتِ، فأصدها بجدرانِ وجداني، فيرتفعُ نشيجُ الألمِ، وأنينُ الحزنِ، فيلوحُ لي خاطرٌ من خلفِ المكانِ الذي تهوي فيه الشمسُ، فيحيي في نفسي بوارقَ الأملِ، ويجلو عن وجداني النشيج والأنين!

كنتُ أمتعُ ناظري بلحظاتِ الغروبِ الجميلةِ المميتةِ، ليس ثَمَّةَ لحظاتٌ تجمعُ بين المتناقضاتِ كلحظة تهوي فيها الشمسُ للرحيلِ، إنها صورةٌ حاضرةٌ للغيابِ! تجمعُ بين الجمالِ والحياةِ، وبين الوقوفِ على صورةِ الاحتضارِ والتلاشي!!



كنتُ أُحَدِّقُ في الشمسِ تغوصُ في قاعِ البحرِ، وخُيل إليَّ زبدُ البحرِ كأنه جيادٌ شهبٌ، يجري بعضها في إثر بعض.

وخطرَ لي أن أذهبَ كل يومٍ لأمتعَ الطرفَ بذلكَ الجمالِ، أغيبُ فيه قليلًا عن آلامٍ أَتَتْنَا حينَ التحمَ الشرُّ بالجهلِ، فوقعتْ مأساةُ سبتمبرَ، وفي سبتمبرَ غادرَ الوطنُ ولم يعُد بَعْدُ! فوقعنا في هوةٍ بلا منافذَ، نسترقُ النظرَ، نبحثُ عن الضوءِ، نبحثُ عن الهواءِ، فلا نجدُ إلا الترابَ والدماءَ، وديدانُ تضجُّ مضاجِعَنَا وتزيدُ مِنْ مخاوِفِنَا وآلامِنَا.

أتطلعُ -دونَ قصد- إلى جريدةٍ مفتوحةٍ في يدِ شابٍّ يجلسُ إلى جواري على دكَّةٍ متهالكة، فيقلِّبُهَا بسرعةِ البرقِ، تختلطُ لديه العناوينُ، لا يرى فيها سوى الأوهامِ، ويرى الغربانَ تتدلى صُوَرُهُمْ في الصحيفةِ كأبطالٍ حقيقين؛ فيرميها بعنفٍ خلْفَهُ، حيثُ الأوراقُ والبقايا تملأُ المكانَ.

كنتُ أجلسُ على حالتي تلك، حتى يُسكتُ الليلُ بعنفوانِهِ صوتَ النهارِ الخافتِ، فأجمعُ نفسي، وأتوجهُ عائدًا إلى المنزلِ مُكرهًا، أحملُ نفسي حملًا.

نعم، في تلكَ الأيام فقط، كانَ المنزلُ يعني لي زنزانةً بلا أبوابٍ تجمعُ صنوفَ الألمِ، باتت منازلنا في تلكَ الفترةِ كهوفًا مظلمةً، متخمةً بالوجعِ، تشكو فقدانَ الحياة..

أصِلُ إلى المنزلِ، يرتفعُ منه ضوءٌ خجولٌ تنفثه شمعةٌ هزيلةٌ



خُلقتْ لتموتَ سريعًا، وأنينُ الأطفالِ يرتفعُ من زاويةٍ أخرى، يئنّونَ من حرٍّ مزقَ أجسادَهُم الغضةَ، ينتظرونَ عودتي لأبحثَ لهم عن قليلٍ من الماءِ يخففُ حِدَّةَ الألمِ.

نَفِرُّ إلى السطحِ مجددًا، نتكئُ على ضوءِ القمرِ، وننامُ نومَ مُودِّعٍ، نخشى من رصاصةٍ طائشةٍ، تنزلُ مِنَ السماءِ، لتكتبَ قصةَ رحيلٍ لإنسانٍ أرهقَه الشقاء.



آلة الخراب

أرجعتْني الذكرياتُ الغائرةُ في قلبي؛ لسنواتٍ مضتْ، غابتْ وذابتْ في طريقِ السيرِ المحفوفِ بمجهولِ الليالي، وانتظارِ مشرقِ الأيامِ المتواري خلفَ سُحبِ الظلامِ.

فَمُذْ كنتُ صغيرًا وأنا كَلِفٌ بها، أهيمُ بها حبًّا، في باحاتها، وأروقتها، وأعمدتها، وترابها.. اشتمُّ رائحتها ينبعثُ من تلكَ الربوعِ البعيدةِ، تناديني صوامعُ المساجدِ والكنائسِ، ودروبُ الأحياءِ العتيقةِ، وروحانيةُ المكانِ المتناثرِ في زواياها، وحرَّاسُ الكرامةِ القائمينَ على عتباتِهَا يذودونَ عنها نِيْرَ الغاصبِ الأثيمِ.

وأسمعُ بكاءَ مآذِنِهَا، ونَوْحَ منابِرِهَا واليمام، وأرى حزنَ الحَمَامِ والسماءِ، ولازلتُ أحلُمُ أن أسمعَ صوتَ صهيلِ خيولِ الفاتحين!

في الصراعِ المُحتدمِ بيننا وبين القوى الغاصبةِ التي انتزعت بقوةِ الباطلِ أرضَنا ومسرانا، سَطَّرتِ الحجارةُ تاريخًا منَ البطولةِ، واستحالتِ الطفولةُ ثورةً مِنَ الغضبِ زلزلتْ جدرانَ العالمِ



الصامتِ، وسجَّلَ الرجالُ بضرباتهم لحنًا من الفداءِ والصمودِ؛ أننا هنا نموتُ وتحيا القدسُ.

ثم انزاحتِ السنينُ، وحملتْ رياحُ الصراعِ أصداءَ مقاتلينَ آليينَ يسومونَ الأمةَ سوءَ الفعالِ؛ لِيقْتُلَنَا رجالٌ مِنَ الحديدِ صُنعوا، حفاظًا على أنفسهم.. ضَنًّا بها، وصونًا من حجارةِ الفاتحينَ!

وكنتُ أبيتُ مهمومًا منشغلًا بهيئةِ القادمِ لسَحْقِنا، ما شكلُهُ؟ ببراءةِ الأطفالِ أسألُ.

ولمَّا يأتِ بعدُ، واستطالتِ الأيامُ، ولم يأتِ القادمُ المُنتظر لقتلِنَا وانتزاعِ كرامتنا، ما رأيتُه بعدَ كلِّ هاتيكَ الانتظاراتِ في مرافئِ القلقِ، كائناتٍ بشريةٍ مِنْ أبناءِ جلدتِنَا، سَحَنَاتُ وجوههم كسحناتِ وجوهِنَا، يتكلمونَ بألسنتِنَا، بيْدَ أَنَّ قلوبَهُم مدبرةٌ عنا، وأيديْهم معولُ الهدمِ والعدمِ!

هديرُ دمائنا لم يقفْ، وإنسانيتُنَا سُحقتْ بصنعِ أبنائِهَا، ومسرانا لازالَ أَنِيْنُهُ يخترقُ السماءَ، وأنا لَمْ أعد أنتظرُ القادمَ لقتلنا؛ لأنني بتُّ مقتولًا بالآلةِ التي انشقتْ مِنْ بَيْنِنَا لتكونَ أداةً وسيفًا يضربُ رقابَنَا المتطلعةَ لِقِيَمِ الحريةِ والعدالةِ والبناء!



فلماذا يملكونَ رقابنا؟!

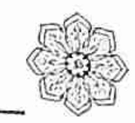
أفلتَ منهم؛ وصرخَ بأعلى صوتِهِ: «نحنُ قصةُ شعبٍ نَشَأَ في أحضانِ البؤسِ،وشبَّ تحتَ جُنحِ الأسى، يتقلبُ في أحلكِ ألوانِهِ.. ورضعَ لبانَ الظلمِ أشدَّ ما يكونُ مرارةً وقسوة».

في النهارِ تائهون، وفي الليلِ البهيمِ نُتَمْتِمُ بصراخٍ صامتٍ، عنِ اللصوصِ والموتِ وأشياءَ أخرى!

هم طوباويون لا يرونَ إلا أنفسَهُم؛ ينتصرونَ دومًا لِدِمائِهِمُ الزرقاء، وحقِّهم المقدَّسِ، ونحن متوارونَ عن الظهور لا حقَّ لنا في شيء!

إنهم أثرياءُ جدًّا، ونحن فقراءُ جدًّا، هم كرماء جدًّا؛ لكننا شعبٌ لا يستحقُّ الحياة..!

غابَ العدل فينا؛ فصنعَ الحرمانُ منه تاريخًا تليدًا.. ولا زلنا نتغنى به بأصواتِنَا الخافتة..



هُمْ كبارٌ في طموحِهِم، ونحنُ أحلامُنا كبيرةٌ، ونحن -يا أيها السادة- صغارٌ بين أقوامنا.. وهمْ أصفار في أفهامهم، ويتبوؤون ما لا يستحقون، فلماذا يملكونَ رقابنا؟!



الجواز الأسود

اقتربَ بضْعَ خطواتٍ لدخولِ الممرِ الذي من خلالِهِ يلجُ مدينةَ الأحلامِ التي يعيشُهَا في أحلامِهِ منذُ زمن..

قفْ هنا، دَوِيُّ صوتٍ جاءَ من خلفِ المكتبِ الزجاجي، تلعثمَ، وتصببَ عَرَقًا، وأحسَّ بارتباكٍ عنيفٍ، وشعرَ أنَّ العيونَ تلتهِمُهُ، تنظرُ بازدراءٍ لجوازِهِ الأسودِ، أحسَّ بأَنَّهُ باتَ فريسةً للذلِّ، شَرَعَ يتلفتُ باضطرابٍ لمن حولِهِ، ممن يحملونَ طينةً أرقى مِنْ طينَتِهِ التي خُلقَ منها، لَمْ يشاهدْ سوى ماركاتٍ عالميةً تغطي العيونَ بلونٍ أسودَ كحائطِ فصْلٍ يميزُ بينهم وبينَ مَنْ سواهم مِمَّنْ يحملونَ الجوازاتِ السوداء!

- (ماذا تريدُ أيها الأبله؟) صاحَ الحارسُ الذي يقفُ أمامَ الممرِ الموصلِ لبلادِ الأحلامِ.

- أنا، ها .. عفوًا لا شيء، وإنما أردتُ...



- انصرفْ من هنا. وأشارَ بسبابته بكل عنفوانٍ، ليسَ مكانكَ هنا يا هذا.

ثم انحنى انحناءةَ إجلالٍ لشابٍ منكوشِ الشَّعْرِ يتبخترُ في مشيته، قامتُهُ مرصعةٌ بالعديدِ من الماركاتِ العالميةِ، من أخمصِ قدميْهِ وحتى رأسِهِ المنكوشِ..

- تفضل سيدي. قال له الحارس، وأخذ منه الجواز الأخضر للمرور.



عن الإنسانِ أبحث

ويمضي المهاجرونَ في طريقهم لمدينةِ الخلاصِ؛ للنجاةِ من تنكُّر المجتمعِ والوطنِ، وتظلُ الألسنةُ تلهجُ مع كلِ رحيلٍ جبْري:

أخرجُ ويطويني الأسي!!

الأبُ: امكثْ يا بني، أين أنتَ راحلٌ؟!

الابنُ: للناسِ هناكَ في أقاصي الدنيا.

الأب: وهنا؟!

الابن: لا مكانَ لي.

الأب: لن يسمعكَ أحدٌ.

الابن: سأرفعُ صوتي حتى يبلغَ الأفاقَ.

الأب: ستذروه طاحونةُ الحقيقةِ المقدسة في الهواء!

الابن: سأحكي لهم عن مَلِكِ الكهوفِ، وزعيمِ الحروبِ،

والطاحونةِ المقدسةِ، والرعيةِ التي ترزحُ تحتَ ثوبِ الفقرِ المدقعِ، والدَّجْلِ..

عن الحياة الممزقة هنا..

عن الفوضى والجنون والنظامِ بحدِّ فوهة البندق ورائحة البارود، عن عيونِ الأسرى خلفَ قضبانِ العبثِ، وعن النورِ القابعِ تحتَ وطأةِ الظلامِ.

الأب: لن يفيدَكَ هذا الجنونُ أيها الأحمق!!

الابن: وهل أبقوا للعقلِ مكانًا؟

الأب: أيُّ لعنةٍ حَلَّتْ فيك يا ولدي؟!

الابن يصمتْ.

الأب: سلالة طيبة، وقائدٌ جَسُورٌ، وتشيحُ عنهم؟!

الابن: عن الإنسانِ أبحثُ يا أبتي..

الأب: هم حقيقة الإنسانية وخلاصتها..

الابن: أَكْفُرُ بإنسانيتهم -إن كانَ ثَمَّةَ إنسانيةٌ لديهم-.

الأب: يا لكَ من عنيدٍ!

الابن: دعني أرحلُ يا والدي؛ حتى تتخلَّصَ من اللعنة التي حلَّت بي من قبلِ الآلهةِ الجددِ!

الأب: يعزُّ عليَّ فراقك.



الابن: كُتبَ الفراق بيننا، وعلينا حين ارتضينا لأنفسنا أن نكونَ عبيدًا؛ نتمسَّحُ بعتباتِ الكهنة!

الأب: إنهم النورُ الذي أزاحَ الظلماتِ..

الابن: ليهنكَ النورُ يا أبتاه..!

الأب: امكث يا بني -بحقِّ القائد والأنصار-.

الابن: قد قررتُ الهجرة والرحيل، ولن أَحِيْدَ عن ذلك.

وخلتِ المدينةُ إلا من القادمينَ إليها من هاتيكَ الجبالِ النائيةِ، وباتت مدينتُنَا مثلُ بيوتِ الأشباحِ، وموائلِ الكلابِ.



ليالي الظلم

على أبوابِ السفارةِ كانَ يقفُ بتململٍ، على وجهِهِ أثارُ معركةٍ قاسيةٍ.. عيناه تشي بُحزنٍ دفين..

يداه ترتعشان بشكلٍ مُلفت، يشربُ الدخانَ بنَهَمٍ غيرِ طبيعي..

التفتَ إليَّ فجأة، قال لي: خرجَ ولم يعد! هل تعرفه؟!

قلتُ له: نعم.

قال لي: ذاكَ هو أنا.. خرجتُ ولم أعدْ للحياةِ، منذُ اللحظةِ التي دخلتُ فيها دهاليزَ المعتقلاتِ الموحشةِ! هناكَ تعلمتُ الدخانَ، فالدخانُ مرتبطٌ ذكراه في حياتي بالألمِ والظلمِ الذي عشته عقدًا من الزمن.

- هل تعرفُ أو سمعتَ عن (سجنِ الفتح) يا بني؟!

- لا.

- آآآه، يا ليالي الظلمِ فيكِ؛ تبًا لكِ..

تبًا لها..

تبًا لبانيكِ!

راح ينشدُ هذه الكلماتِ عن الليالي المؤلمةِ في السجنِ بصوتٍ أسيف..

يأسفُ على أيامه التي قضاها في ردهةِ المعتقلاتِ..

يأسفُ على الوطنِ الذي لم يحتفِ به عند خروجِهِ للحياةِ مرةً أخرى.

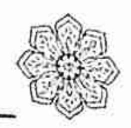
يأسف؛ لأنه رفض الخروجَ من الوطن في لحظةٍ سانحةٍ، رمى بكلِ الفرص تحتَ قدمَيْهِ، وتشبثُ بسمفونيته التي لم تعد تنشدُ سوى ألحانَ الموتِ والخرابِ!

التفت إليَّ مرة أخرى، وقال لي: هجرني الجميعُ في نهايةِ المطافِ عندما اقتنعوا أني بلا مستقبل!

كانوا حينها يجهلونَ أنهم مخطئونَ، آثمونَ بسببِ قناعتِهم المشوهةِ، لا يعرفونَ ما معنى أَنْ تعيشَ ميتًا، وتصنع للآخرينَ الحياة ؟!

لم يكن أحدٌ منهم يعلمُ أنّ روحي تنزفُ، وفؤادي تتهاوى جدرانه واحدًا تلو الأخر.. والمعاولُ لمَّا تصمت بعد.

بخشوعٍ على عتباتِ الحياةِ أَقِفُ، جسدي منهكٌ حدَّ الهلاكِ.. في عيني لا أرى شيئًا غيرَ مستقبلهم!



ودعني بيد، ويده الأخرى تمسكُ بكومةٍ من الأوراقِ التي تحكي قصة أمراضه التي أبتْ أن تبرحَ جسدَه المهدودَ. وهمسَ في أذني قائلًا:

يا بُني: همْ لم يَصنعوا شيئًا..

كل ما فعلوه؛ أنهمْ أخذوا الحياةَ منا جملةً..

ثم أعادوها مجزأةً، بشكلٍ خجولٍ، وبصورةٍ مهترئةٍ.



رحلتنا مع الآلام طالت

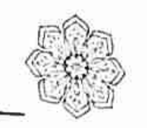
رأيتُها ملهوفَةً، تشعرُ بالتوترِ، وتظهرُ عليها حسراتُ العدمِ، وقهرُ الحاجةِ المُذلُّ.. وفزعُ المُحبِّ الصادقِ..

في إحدى المستشفيات، كانت المرأةُ تحملُ أوراقًا لعلاج أطفالِهَا؛ ثلاثةً مِنَ الأبناءِ مصابونَ بأمراضٍ مختلفةٍ في آنٍ واحدٍ..

قابعونَ في إحدى الزوايا، تحملُهُم الآلامُ.. في حالة بؤسٍ ظاهرٍ.. تتوزعُ نظراتُهُمُ الكسيرةُ كُلِّ مَنْ مرَّ بهم.

رأيتها تُلحُّ على رجلٍ ليشتريَ لها العلاجَ.. وَعَدَهَا الرجلُ خيرًا.. ومضى، فَمَضَتْ خلْفَه فرحةً جذلةً..

وفجأة -في لحظة غفلة مني- سمعتُ صوتَ ارتطامٍ.. فخفق قلبي، وشعرتُ بحدثٍ ما، تقدمتُ خطواتٍ، فرأيتُ جمعًا من الناس يُحيطون بامرأةٍ تُلملمُ جلبابها العتيقَ، وبقايا نفسِهَا المنكسرةِ، وآلامِها وأوراقِها بعدَ اصطدامِهَا بسيارةٍ كادت تودي بحياتها لولا لُطفُ الله ورعايته..



مضيتُ بعدَ ذلك بألمي، ومضت هي مرةً أخرى تَتْبَعُ الرجلَ؛ بحثًا عن الحياةِ بأملٍ لا هوادةَ فيه.



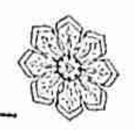
صنائع المعروف

في الليلةِ الأخيرةِ من رمضانَ لمحَ ظلَّ أنثى يرتجفُ مِنَ الخجلِ، اقترب منه، فرأى فتاةً في مقتبلِ العمرِ، تقفُ على بابِ المسجد، منكسةً رأسَهَا، تمدُّ يديها، وما كان لها أن تفعلَ ذلك، لولا صروفُ الدهرِ التي دفعَتْهَا للخروجِ والوقوفِ منذُ رحيلِ أبيها المفاجئِ!!

هَالَهُ أَنْ تقفَ فتاةٌ في موقفٍ كهذا، واشتدَّ حزنًا على حُزْنِهِ لرحيلِ رمضانَ.. فأخرجَ من جيبه مبلغًا من المال، ووضعه في يدها ثمَّ مضى..

عندَ عودتِهِ للمنزلِ اكتشفَ أنَّ المبلغ الذي أودعه في يدي الفتاة، كان عُملة أجنبية، بعثها صديق من دولةٍ شقيقةٍ للاستعانةِ بها على حوائجِهِ!!..

كادَ أَنْ ينهارَ، أحاطَ به الغم، واستبدَّ به الكَرْبُ، لكنه سَرْعانَ ما أمسكَ بتلابيبِ غضبِهِ، وقطعَ حبلَ التحسرِ، وقال هامسًا: اللهمّ لا اعتراض، اللهمَّ فتَقَبَّلْ.



عادتِ الفتاة إلى المنزل، فوجدت عُملة أجنبيةً تكفيها مغبةَ السؤالِ، وتمنعُهَا من الوقوفِ بذلٍّ أمامَ الآخرين، ندَّتْ من عينيها دمعة، وقالت بهمس: اللهم وتقبل منه، واسقِ قلبه ماءَ الرضا واليقينِ.

مضى على هذه الحادثة تسع سنوات، وفي سنواتِ التيْهِ التي عاشها ويعيشها اليمنيون بسببِ الحروبِ القذرةِ، انقطعتِ الأرزاقُ، وضاقتْ سُبلُ العيشِ، وباتَ الناسُ يهتفون مِنَ الألم: ألا موتٌ يباعُ فنشتريه!

لِتَوِّهِ خرجَ مِنَ السجنِ؛ لأنه وقفَ ضدَّ سقوطِ الوطنِ، كانَ الوطنُ يترنحُ، يريدُ أن ينقضَّ فأقامه، كانت هذه تهمته التي غُيِّبَ بسببها خلفَ القضبانِ، وعندما خرجَ وجد كل شيءٍ قد توقف، وراتبه الذي يكفيه ذلَّ السؤالِ توقفَ هو الآخر..

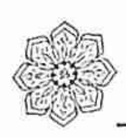
وبات في منزله يشعرُ بغربةٍ عنيفة، وَيْكَأَنَّ السجن كان أحبَّ إليه مِنْ أَنْ يكونَ ميتًا يمشي على قدمينِ منهكتين!

وقبل الليلة الأخيرةِ من رمضان لهذا العام، دقَّ أحدهم باب المنزل، فتحَ الباب، وجدَ ما يشبه الصندوق، التفتَ فلم يجد أحدًا، لمحَ ظل أنثى في آخر الممر، ثم تلاشى.

في المنزل، وجدَ رسالةً، مكتوبٌ فيها:

|سلامٌ من الله عليك،

في ليلةٍ من ليالي الألم، تبعثرتْ كرامتي، وراودني إحساسٌ



بالانتحارِ، حينَما وقفتُ أسألُ الناسَ، لكنكَ أعدتَ إليَّ الحياة، بمبلغٍ باهظٍ لم أَكُنْ حينَهَا أحلمُ به، كنتَ سببًا في إحيائي من جديدٍ، وجعلتَ يَدِي عُلْيَا بعد أن كانت تستحلي سؤالَ الآخرين، وتتمرغُ في ذلِّ الحاجة..

ثم منَّ الله علينا، وانزاحت عنا سنوات عجاف، وزالَ الإمحال من حياتنا، وتزوجتُ برجلٍ أعيشُ في كنفِهِ ملكةً، وقد سمعتُ بحالك وما ألمَّ بك، ولم أفعل شيئًا غير أنني أعدتُ إليكَ دينًا لا يجازيكَ عنه إلا الله.

طوى الرسالة، وتذكَّرَ تلكَ الليلة التي وضعَ في يدِ الفتاةِ عملةً أجنبيةً، وكادَ أَنْ يتحسَّرَ لولا أنَّ الله عصمه بالرضا والتسليم..

انحدرتْ مِنْ عينَيْهِ دمعةٌ، وهو يمسكُ بيديه عشراتِ الأوراقِ الماليةِ لعملةٍ أجنبيةٍ، واخترقَ جدارَ السكونِ صوتُ قارئٍ يترنم: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة:261].



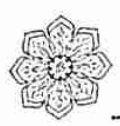
توثيق الضعف الإنساني

إنَّ آلافًا منَ الناسِ يُهلُّ عليهم هلالُ رمضانَ[1] وهم قابعونَ في حمأةِ الشقاءِ والحزنِ، تحاصرهم حرارةُ تسلخُ الأجسادَ، وأرزاقٌ مقطوعةٌ، وَمُرَتَّبَاتٌ متوقفةٌ، وحياةٌ منعدمةٌ، يخوضونَ كلَّ يومٍ معركةً شرسةً للحصولِ على الماءِ ولقمةِ العيشِ!

أنفَقَوا كلّ ما يملكونَ لشراءِ ما يُخففُ عنهم وطأة الحرِّ الكالحِ، وفيحِ جهنمَ الذي وجدَ طريقَهُ هناك، تكلستْ أحلامهم، وشاختْ أمانيْهِم، فَلَمْ تَعُدْ أمنيةً أجمل من الحصولِ على الماءِ أو النور!

يدخلُ رمضان هذا العام، ثم يعقبه العيدُ، وحالُ الناسِ لم تتغيرْ، والسوءْ في ازديادٍ، يتساقطونَ من الجوعِ، ويموتونَ من

(1) منذ أن دخلت بلادنا في الحروب والأزمات، وسقط الوطن، والناس يعيشون في سوء مستمر، بلغ ذروته مطلع العام 2016، بعد أن توقفت أرزاق الناس بانقطاع الرواتب!!



الأوبئةِ، وأمراءُ الحروبِ ما زالوا يراهنونَ على صبرِ (الشعبِ العظيم) الذي يختبرونَ فيه حماقاتهم!

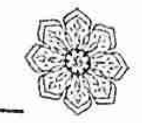
إنَّ الألمَ الذي أحدَثَتْهُ الحروبُ، والذكرياتُ المُرهقة التي التصقتْ بذاكرتِنَا، والمساكين الذين راحوا ضحيةً لهذا العبثِ الذي لحقَ بالوطنِ؛ ليجعلنا نستكثرُ اللعنات على الذين وضعونا في هذه البئرِ العميقةِ التي لم تجدْ قافلةً تنتشلهم مِنَ القاعِ.

إنَّ الإنسان في الداخلِ يطمحُ بالخروجِ منها، وإنسانُ الخارجِ يأملُ في عدمِ اللقاءِ بها، استطاعوا أن ينتزعوا قداسةَ الوطنِ من قلوبنا، ووطننا بلدةٌ طيبةٌ، أغارَ عليه الحمقى الواهمون، ديدانُ الكهوف، ولصوصُ الأمس، وفسدةُ التاريخِ الحديثِ؛ فجعلوها صحراءَ مُمْحِلَةً إلا من الموتِ والوباءِ!

وقد تناهى إلى مسمعي في إحدى الليالي أَنَّ ثمةَ مَنْ يقفونَ بجانبِ المُعدَم، يسدونَ شيئًا من العِوَزِ والحاجةِ، ويجبرونَ الخواطرَ المنكسرةَ!

خرجتُ من منزلي، وتوجهتُ إليهم بعد أَنْ أظلمتِ المدينةُ، كنتُ أشعرُ بالخجلِ والحرجِ، لم أخطُ خطواتٍ كهذه مِنْ قبلُ، قلتُ لنفسي..

وقفتُ مكاني، وهممتُ بالعودةِ، بدا لي أنينُ أطفالي، وقلقُ زوجتي الذي أطفأَ جذوةَ عينَيْهَا الجميلتينِ، يستحثني المسيرَ؛ فانتصرتُ على نفسي وخجلي وحرجي، ومضيت.



فيما مضى، كانت تقولُ لي أمي -رحمة الله عليها- أنني أحملُ صورةَ طفلٍ بريءٍ، يتصبَّبُ ماء البراءةِ من وجهه، أحملُ روحَ طفلٍ يتيمٍ، لعل هذه الحالةَ التي كنتُ عليها، جعلت من كانوا يمنحونَ شيئًا من المعونات يتجهونَ نحوي؛ لاستثمار الوجهِ البريءِ، وقلبِ الطفلِ الذي أحمله.

حِرْصُ الجميعِ أَنْ يلتقطَ صورةً معي، تارةً وأنا أحملُ علبةَ الزيتِ، وصورةٌ وأنا أحملُ قليلًا من الطحينِ، وثالثة ورابعة..

وكنتُ كمن فَقَدَ القدرةَ على النظرِ، في ذهولٍ مما يحدثُ لكرامتي مِنِ امتهانٍ، يقلبونني كما يشاءون، ومع ذلك لم أَشَأْ أَنْ أصرخ في وجوهِهِم، أَنْ: كفوا يا مصاصي الكرامةِ. تمرغتُ بالتبلد، ودست على أي حركة معارضة يقودها الضمير اعتراضًا على ما يحدثُ لي!

تمت عملية التوثيق للضعف الإنساني بنجاحٍ، وعدتُ إلى منزلي أحملُ نفسًا محطمةً، وشيئًا من المعونات!



محشر الأضداد

كَيْدٌ يُردُّ وآخرُ يقع.. أملٌ يشرقُ من بعيد، وخوفٌ ينبعثُ ممن حولك.. ألمٌ وأنين، سرورٌ وفرح.. عينان زرقاوان وأخرى سوداءُ، بشرةٌ سوداءُ وأخرى بيضاءُ.. غنى فاحش وفقرٌ مدقع.. تخمةٌ مميتةٌ وجوعٌ كافرٌ.. نَصرٌ يَظهرُ كشمسِ الحياة، ومايلبث أن يخبو لتأتي الهزيمة تؤزنا أزًا..

اختلافٌ واتفاق، رأيٌ وآخرُ، حياةٌ وموتٌ، علمٌ ينيرُ، وجهل مظلمٌ مُطْبِقٌ.. سَخط ورضا..

عجوز احدودبَ ظهرُها وعيناها لحسنِ الختام تحُدقُ، وفتاةٌ يافعةٌ عيناها مفتوحتان لمستقبلٍ مشرقٍ وحياةٍ هادئةٍ، وبينهما أقسام أخرى بعدد تناقضات الحياة، طفلٌ يبتسمُ وآخرُ بدمائه يغرق..

قلةٌ غالبة وكثرةٌ فاشلة، فسادٌ بحجمِ الجهلِ وغيابِ العقلِ، ومصلحون يحفرون في الجدار يحملون معاولهم..

ثورةٌ وأخرى مضادة ..



أحرارٌ وعبيد ..

إِباءٌ وصمود .. ذلٌّ وهوان ..

وبين كل ذلك ضميرٌ ما زال يُصارعُ الموت علَّه أن ينتصر ..

وإنا لمنتظرون.



قذارة الحروب

من قذاراتِ الحروبِ أنها تنزعُ منَ الإنسانِ إنسانيَّتَهُ، تجعلنا الحروبُ أكثرَ قسوةً فيما بيننا..

تصبحُ مناظرُ الدماءِ والأشلاءِ، وسَحْلِ الجثث، والعبثِ بالإنسان وكرامته وحريته أمرًا مألوفًا يفتخرُ به البعض، وينتشي له آخرون..

والمؤلمُ أنَّ الدماءَ جميعَهَا مِنْ طينةٍ واحدةٍ، مِنْ مكانٍ واحدٍ تنتمي لوطنٍ واحدٍ.. لكنها شهوةُ المُلكِ، وادعاءُ الحقِّ المسلوبِ، واستغفالُ الأتباعِ، وساسةُ شربوا مِنَ الحقارةِ حَدَّ الثُّمَالَةِ، ومُغفَّلون وقعوا في شرِّ أعمالهم وحماقاتهم.. اجتمع كل شيء لتُرسم هذه الصورة القاتمة لوطنٍ ممزقٍ، وإنسانيةٍ صريعةٍ.



قبسٌ من مدينتي!

(الصبالية) حيٌ فقيرٌ يتبعُ (مديرية الحوك)، يشقُّها من جانبِها الأيسرِ شارعُ (الصبالية) الشهير، الذي يحتفي بطابعه الخاص، ونكهتِهِ الفريدة، وطريقته المختلفة في تقديمِ أشهى المأكولاتِ الشعبيةِ التي تتميز بها (مدينة الحديدة).

سوق شعبي، يبتاعُ الناسُ منه طعام الحياة المعجون بماءِ المدينة الندي، في (الصبالية) ترتفعُ أعمدة الدخان، وتنتشرُ رائحة الأسماكِ بطريقةٍ فريدةٍ لا تجدها إلا هناك، فإذا ما حدثتكَ نفسُكَ يومًا أن تأكل (المُقلى) والأرز الأبيض المرشوش بماء صلصةِ السمكِ، وكبيسِ الحوكِ الشهيِّ، مع فتةِ الموزِ التي لا تُظهرُ فتنتُها إلا في ذلكَ المكانِ البسيطِ؛ الذي يجتمعُ فيه الباعةُ تحتَ حرارةِ الشمسِ، يُهْدون الناسَ أجودَ ما وصلتْ إليه المدينةُ من أكلاتٍ شعبيةٍ محليةٍ، لا يستغني عنها الناس هناك، فقد حُبيتَ بيومٍ جميلٍ يظلُّ في ذاكرتكَ ما حييت..



شربتُ الشايَ في أجملِ مقاهي (صنعاءَ) و(جُدَّةَ) و(القاهرة)، لكنني ما زلتُ افتقده، افتقد حلاوته في لساني، لا أشعرُ أني أحتسي الشاي إلا هناك، عندَ كرسي (الهبة) المتهالك، ومقاعد الطيّبِ المستديرةِ، في (الصبالية) فقط للشاي طعمٌ آخر..لو قُدِّر للمتنبي أن يحتسيَ كوبًا منه، لقال على إثر ذلك قصيدة عصماء تتغنى بجمالها الدنيا..

ولو قُدِّر لأي رحالةٍ شهير لأرضِ اليمن أن يزورَ (الصبالية) مدعوًّا لوجبةِ غذاءٍ،يفترشُ الأرضَ ويجلسُ على (المجلاسة) بكلِّ عفوية على هيئة حلقةٍ مستديرةٍ مع لفيفٍ مِنَ القومِ، لكتبها في مُذَكِّرَاتِهِ كأهمِّ وأظرفِ حدثٍ اجتماعيٍّ شاهده في المدينة..

في (الصبالية) فقط تتعانقُ حرارةُ الفحمِ الذي ينضجُ فيه الطعامُ بحرارةِ الشمس الحارقة، لتترك أثرًا في وجوهِهِم، فيشعرُ الزائرُ بلذةٍ غريبةٍ لا يجدها في مكانٍ آخرَ.

في(الصبالية) يقبعُ الإنسانُ التهامي بطيبتِهِ وخيبتِهِ وأقدارِهِ، كعنوانٍ بارزٍ يصفُ المدينةَ وأبناءَها الغارقينَ في وحلِ الطيبةِ والبساطةِ والنسيانِ.



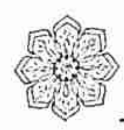
بين (الحالمة) و(إب)[1]

بعد أَنْ تسربلتْ سماءُ المدينةِ بظلامِ الليلِ وانعدامِ الكهرباءِ كان الرحيلُ، اتصل بي لفيفٌ مِنْ أصدقاءِ الحياةِ؛ للذهابِ إلى مَوْطنِ الجمالِ، فشددتُ حقيبتي وودَّعتُ أهلي ومضيت.

في طريقنا لمدينة (تعز)، كانتِ الأنفاسُ تسجلُ أروعَ لحظاتٍ يعيشُهَا المشرئبةُ أعناقُهُم لرؤيةِ الحُسْنِ والبهاءِ والجمالِ الآسرِ، وصناعةِ الملكِ المقتدِرِ؛ المتمثل في سحر (صَبِر) وجبال (إب).

على طريق الساحل الممتد مضينا تُطوى لنا الأرض طيًّا.. نشتمُّ رائحةَ البحرِ ولا نراه، فظلمةُ الليلِ سَطَتْ على زرقتِهِ فرضينا برائحتِهِ.

(1) كتبتُ هذه المشاهدات قبل أن تُدمَّر (مدينة تعز) وتُحاصر من قبل الميليشيات التي أحالت المدينة إلى بقايا خراب، واغتالت فيها كل جميل.



كلُّ ألوانِ الأدبِ واللغةِ والشعرِ والنكتةِ والفقهِ والنقاشِ والطُرفةِ والجدالِ والضَحكِ وسماعِ أعذبِ الألحانِ كانت حاضرة ونحن في طريقنا (للحالمة).

بعد مُنتصفِ الليل دخلنا المدينةَ، ومسَّ أجسادَنَا هواؤها العليلُ؛ فدبَّتْ روحُ الحياةِ فينا، بعد أن أنهكها حرُّ المدينةِ اليتيمةِ، وانقطاعُ الكهرباء..

من وعثاء السفر ارتمينا في أماكننا المجهزةِ؛ لننامَ نومةً هنيئةً هادئةً، لا يُسمع فيها ضجيج المكيفات، وبعيدًا عن الحالة النفسية التي نعيشها ونحن في هجعةِ النومِ خوفًا من انطفاءِ الكهرباءِ؛ ليبدأ بعدها ليلُ الألم..

من فوقِ الجبلِ المطلِّ على المنزلِ كانتْ تقبعُ منارةٌ عتيقةٌ فوقَ مسجدٍ صغيرٍ مِنْ خلالِهَا صَدحتْ كلمةُ التوحيدِ؛ لنقوم على إثرها لصلاة الفجر، والكون يَلُفُّهُ الخشوعُ، وتكسوه المهابةُ، ووجوهنا يداعبُها البردُ الجميلُ ونحن نتحسس الطريقَ نحو المسجدِ القديمِ.

بعد صلاةِ الفجر انطلقنا إلى وسطِ المدينةِ عندَ بائعِ الفولِ الشهير المحلَّى بزيت الزيتونِ، ومعنا ثلاجتان من شايِ الصباحِ برائحةِ النعناعِ؛ لتناول الإفطارِ في تَلَّةٍ مرتفعةٍ على سفْحِ جبلِ (صَبِر)، المطلِّ على المدينةِ الضاحكةِ للحياةِ، الساكنةِ إلى الأمن، السابحةِ في جوِّ النَّغَمِ العَذْبِ، والعِطْرِ الأريجِ، والهواءِ العليلِ، المتشبعةِ بقيمِ الحريةِ والثورةِ والكرامةِ.



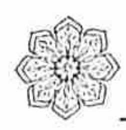
عُدنا للنومِ بعدَ تناولِ وجبةِ الإفطارِ، ولم نستيقظْ إلا في الظهيرة، وعلى أبوابِ مطعمِ (حضرموت) جادتِ السماءُ بمائها، وارتوت المدينة ماءً شفيفًا يغسلُ عنها أوجاعها وأزماتها التي تعيشها (الحالمة) وكل المدن اليمنيةِ.

اتجهنا بعدها مباشرةً إلى سوق (المستهلك الكبير) الذي مَثَّل بالنسبةِ لنا شيئًا جديدًا غيرَ مألوفٍ؛ لأننا لم نشاهدْ مثله في مدينتنا اليتيمةِ!! تجولنا في أروقته وأخذنا منه الفستقَ والحلوى؛ لنصحبها معنا إلى جبل (صَبِر).

في الساعة الرابعة والنصف يَمَّمْنَا وجوهنا لصعود جبلٍ مُشْرِقِ الجبينِ تطغى شهرتُهُ على المدينة؛ لحسنه ودهشته وسموه.. صعدنا إلى مكانٍ مرتفع من جبل (صَبِر)؛ لنستمتع برؤية المدينة بكل تفاصيلها وأماكنها ورموزها..

في جبل (صَبِر) يرتسمُ الجمالُ لترى لوحةً بديعةً أنيقةً فاتنةً محسوسةً، لم تشاهدها في حياتك مِنْ قَبْلُ، يطلُّ على المدينةِ كشيخٍ حانٍ يضمُّ أحفاده بين يديهِ، ومن خلاله تظهرُ الشمسُ وقد توزَّع ضوؤها على المدينةِ، فتزدادُ أَلَقًا وبريقًا ولمعانًا وبهاءً.. حتى إذا ما آلت للغروبِ، وبدأ الليلُ يغزو المدينةَ بسطوته المعهودة، تتحول نجومُ السماء لتكونَ في الأرض!! هذا ما تراه وتشعر به في ليلِ (صَبِر) وأنت تنظُر للمدينةِ كسماءٍ مُزينةٍ بالنجوم.

وَدَّعْنَا الجبلَ الذي أحببناه؛ لنتجهَ إلى وسطِ المدينةِ؛ لتناول



وجبة العشاء في مطعم (الحاج عبده).. ثم عدنا إلى المنزلِ قبيلَ منتصفِ الليلِ، والإعياءُ قد تمكَّن منا، فأسلمنا أنفسنا للنوم.

عند الظهيرة كنا في طريقنا لمدينةِ الجمالِ والسلامِ، رأينا الجبال مكتسيةً بثوبها الأخضرِ وهي تعانقُ الضبابَ، رأينا المنازلَ القديمةَ، الجميلةَ البنيان، ذاتَ النمطِ اليمنيِّ الأصيلِ؛ كقصورٍ مهيبةٍ في أطرافِ الجبالِ، ثابتةً كثبات من يسكنها، رأينا الجمالَ ماثلًا أمامنا، تَرسِمُ مُحيَّاه ابتسامةٌ يشعرُ بها كلُّ زائرٍ للمدينة.

عند دخولنا لمدينة (إب) هطلت الأمطار فكتبتُ في حينها: «سَماءُ إب تغسل المدينة الجميلة بزخاتِ المطر».

اتجهنا لجبل (أبو لحوم). كان المكانُ جميلًا، يحلِّقُ في ارتفاعٍ شامخ.. عند وصولنا؛ تَمَّ إدخالنا لديوانِ (الشيخِ أبو لحوم)؛ الذي جعلَهُ مكانًا ونُزُلًا للزائرين.. لفتت أنظارنا صور (الشيخ سنان أبي لحوم) ورئيس اليمن السابق: (علي صالح).. فأخبرنا رجل من قرابة (الشيخ أبي لحوم)؛ أنه التقطت في زيارة الرئيس الأخيرة المفاجئة للشيخِ (سنان).. وذكر لنا أنَّ الشيخ قال له:

«إنَّ ميادين المدينةِ مليئة بالمتسولين، وأحوالُ الناس تزدادُ فقرًا، وحكمتَ بما فيه الكفايةُ، وعليكَ أَنْ تُسَلِّمَ السلطةَ سلميًّا».

ومما قاله لنا أنَّ الشيخ كانَ مؤيدًا للثورةِ، وأرسلَ بيانًا للشبابِ يقول فيه: «لو كنتُ شابًا لكنتُ بينكم أهتفُ من أعماقي برحيلهم عن الحكم».



صلينا العصر في جامعِ (الشيخ سنان)، ثم عدنا إلى وسطِ المدينةِ؛ نبحثُ عن طعامٍ للغداءِ.. ومما يُنتقدُ على مدينةٍ رائعة كـ(إب)؛ ضعف الجانب السياحي والمدني فيها، فالمدينة تفتقرُ لكثيرٍ مما يحتاجُهُ السائحُ، وهذه مَثْلَبَةٌ تتحملُ وِزْرَهَا الدولةُ وأربابُ الأموالِ في المدينة.

ظللنا نبحث عن مطعم يكفينا أَلَمَ الجوع فلم نجد، حتى دلَّنا أحدهم على مطعمٍ جديد يستقبلُ الزائرين على مدارِ الساعة.

في المطعم الموصوف لفت انتباهنا شابٌ في مقتبلِ العمرِ، حَسَن الوجه، بَهِيّ الطلعةِ، ابتسامتُهُ مشرقةٌ، شَعَرْنَا نحوَه بحبٍ وحميميةٍ..

عَلِمْنَا منه أنه يدرس في مرحلة الماجستير في إحدى الجامعات، ويعمل «نادلاً» في المطعم!!

كان الحديث معه ذو شجون، شَعَرْنَا بضعفنا أمام هذا العملاقِ المجاهدِ في دروب الحياة، لم يجعل نفسه من أصحابِ الأيادي السفلى، وإنما أراد أَنْ يأكل من كدِّه وعرقِ جبينه، لكنها الحاجةُ الماسةُ، ولقمةُ العيشِ العصيةُ التي تجعلكَ تضحي بكلِّ شيءٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ تحيا عفيفًا تُسكِتُ صوتَ المعدةِ؛ لتعيشَ بضميرٍ مرتاحٍ.

عندما قررنا الرحيل والعودة إلى مدينتنا؛ تذكرتُ قول ابن زريق:

اسـتَودِعُ اللَهَ فِي بَغـدادَ لِي قَمَرًا

بِالكَرخِ مِن فَلَكِ الأَزرارَ مَطلَعُه

وَدَّعـتُـهُ وَبـوُدّي لَـو يُـوَدِّعُـنِـي

صَفـوَ الحَيـاةِ وَأَنّـي لا أَودعُـه

وَكَم تَشبَّثَ بي يَومَ الرَحيلِ ضُحَى

وَأَدمُعي مُستـهِلّاتٌ وَأَدمُـعُـه

عدنا آيبين إلى أهلنا، وفي عقلٍ وفكرٍ كل واحدٍ منا ألفُ حكايةٍ وحكاية..

لم تمضِ ساعتان إلا ونحن في مدينةِ الحديدة.. دخلتُ المنزل فاستقبلني (جاد) بابتسامته الساحرة مَحَتْ عني كل ما أعانيه من وعثاءِ الطَريق وأَلَمِ الفراق..

شيء عن القراءة والكتاب

ضوءٌ خَافِت.. في تلكَ اللحَظاتِ المُظلِمة.. هو كلُّ مـا يَرجوه ليكـونَ بمفْرَدِه مـعَ الكِتاب، بعيدًا عن ضَجيجِ الحَياةِ الصَاخِبْ.



رحلة الخلق

نأتي بالأحرفِ لنصوغَ منها الكلمة، ثم نَخْلُقُ من الكلماتِ جملًا متعددةً، ثم تتوالى الجُملُ المنحوتةُ مِنْ جبالِ الكلماتِ القائمةِ على أساسِ الحرفِ؛ لنجعلَ منها أسطرًا مصفوفةً تملأُ الصفحاتِ، لتفضي بعدها إلى الكتابِ، فبينَ الحرفِ والكتابِ خيطٌ رفيع يُنادونه بالفكرة.. والكتابُ لا يعني شيئًا إنْ لم يكن ثَمَّةَ قارئٌ، والقارئُ لا قيمة له إنْ لم يشعر بعظمة ما بين يديه، ابتداءً بالحرفِ، وانتهاءً بالحياةِ القائمةِ في بطنِ الكتاب..

ومن اجتاز سلسلة الخلقِ المبتدأةِ بالحرف والمنتهية بالكتابِ، واستوعب ما تدعو إليه، وأحاط بما فيها، فقد أخذ الكتاب بقوة.

والكتاب والقارئ لا يعنيانِ شيئًا، إنْ لم تصبح الحروفُ والكلماتُ والأسطرُ والصفحاتُ قائمةً بذاتها، ممتزجةً بحامليها، تمشي بين الخلق بقوةِ الكتابِ ونوره.

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [سورة مريم:12].



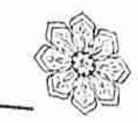
الفكرة

الفكرة، يستلهمها الكاتبُ مِنْ أيِّ شيءٍ حوله، حتى لو رآه الناسُ شيئًا تافهًا، أو مما لا يُلتفتُ إليْه، يستطيعُ الكاتبُ بقدرته على التأمُّل، وذائقته الجميلة أَنْ يصنعَ منها حَدَثًا ذا بال..

الخيطُ الأول للفكرةِ أَنْ تكتبَ كلمةً عنها بمثابةِ مفتاحٍ للولوجِ إليها متى ما نزلَ عليكَ وحيُ الكتابة!

فتقييدُ الفكرةِ مسمارٌ يُدقُّ في جدرانِ الذاكرةِ، كلَّما مررتَ وحانتْ منكَ التفاتة إليه تذكرتَه، وكلَّما تذكرتَه قُمتَ بتقليبِ الفكرةِ في رأسِكَ، ترسمُ لها الخطوطَ العريضةَ، ثم تنتقلُ للتفاصيلِ، حتى تصلَ إلى المنتهى، فتصبحُ مختمرةً ناضجةً في رأسِكَ، وما عليكَ حينها إلا أَنْتُودعها في الورقةِ التي بين يديك؛ لتقومَ على ساقها، بنيانٌ متكامل، يسرُّ الناظرين!

«فالفكرةُ إِلْهَامٌ ورزقٌ ومِنْحَةٌ، والفِكرةُ هِبَةٌ ربانيةٌ، توهَب لأصحاب العقولِ الرَّشيدَةِ والأَفْهامِ النَّبيهَةِ، وهي مِلْكٌ لكل هؤلاء



وَمَنْ هم في مرتبتِهِم في السُّموِّ والارتقاءِ في مدارجِ العِرفانِ، ومنهم الكُتَّابُ وحمَلَةُ الأقلامِ، فهؤلاء تُلْقى في صدورهم الأفكارُ تِلْو الأفكارِ، وما لا تَسَعُه صدورُ مَنْ دونَهُم، فالصوتُ والصورةُ والنظرةُ واللمحةُ والإشارةُ والرمزُ والكلمةُ والحرفُ.. تُوَلِّد لديهم الفكرةَ، أو الخاطرةَ، أو المعنى العميقَ، أو توقِظُ في بواطنِهِم الإحساسَ الفريدَ في لحظاتِ الاستعدادِ لاستقبال أنوار الإلهام، لإنتاج ما يعجز عنه مَنْ فقدوا تلك المواهبَ والعطايا».



قدسية الحرفِ والكلمة

عندما نقرأ نبحثُ عن شيءٍ فريدٍ، نبحثُ عن ذواتنا المختبئةِ في بُنياتِ الأسطرِ، ننتظرُ طويلًا كلمةً تحملُ قَبَسًا للحياةِ، ننتظرُ طويلًا للقاءِ مَنْ نشعرُ أنه كتبَ لنا وحدنا دون غيرنا؛ إحساسًا منه بِمَكْمَنِ النقصِ الذي يعترينا.. عندما نقرأ نبحثُ عن غائب، نعتقد أنه آتٍ لا محالةَ، فنطيلُ في القراءةِ؛ لتقصُر المسافة بيننا وبينَ من ننتظر..

عندما نقرأ نتحرَّرُ من شرنقةِ الحياةِ النمطيةِ التي نعيشها، نعيشُ بعيدًا عن معاركَ وهميةٍ خلقناها لأنفسنا، وخُلقت لنا نجترُّهَا ويجترُّهَا لنا الآخرون.

بعيدًا عن الصخبِ الذي جعلنا نعيشُ فوضى ممنهجةً قَتَلَتْ جمالَ الحياةِ الذي لا نراه إلا في بطنِ الكتاب.

ولقد باتتِ الحروفُ هي البلسمُ لجراحِنَا، إننا نقرأ لنعيشَ، ونكتبُ لنبقى أقوياء، تمنحني الكلماتُ وقودًا لإشعالِ جذوةٍ في



ظلام يأبى الرحيلَ، فرُبَّ كلماتٍ تُرصعُ بمدادِ القلبِ تكونُ أقوى من ضجيجِ الأيام..

هي وَحْدَها مَنْ تترجمُ ما يتلعثمُ به اللسانُ، هي وَحْدَها مَنْ تُفصحُ عن مكنونِ الحزنِ والألمِ والفقدِ والاشتياقِ..

هي الصراخُ الصامتُ، هي البوحُ الذي يُخففُ عنا أعباءَ الحياة التي لم تَعُدْ كما كانت.

هي مَنْ تدكُّ جدرانَ الصدماتِ التي نتلقاها مِنَ الحياةِ وأبنائها..

فعندما تكتظُّ سماءُ قلبي بالبكاءِ، يتطوع القلمُ ليغسلَ ما تتركه الآلامُ فينا، فتعود إليه الروحُ الشاردةُ، فلا يوجد في العالمِ أسمى مِنْ دفعِ الآلامِ عن إنسانٍ لا يستطيعُ التعبير عن ألمه!



الكتابُ طوقُ النجاةِ

لَا زلتُ على يقينٍ أنَّ الكتابَ طوقُ النجاةِ منَ الطوفانِ، وهو النافذةُ الكبرى التي يلجُ منها النورُ إلى النَّفسِ الحائرةِ بين الحضورِ والغيابِ!..

أنقذَنِي الكتابُ في لحظةٍ حرجةٍ مِنَ التِّيْهِ.. مِنَ الضَياعِ.. مِنَ الوقوعِ في شباكِ اليأسِ والإحباطِ والتلاشي.

أنقذني الكتابُ مِنْ غُربةٍ أعيشها في موطني، مِنْ ألمٍ أحتسيه عندَ كلِ شربةِ ماء، مِنْ وضعٍ قاتمٍ حدَّ السوادِ..!

أنقذني الكتابُ مِنْ وحلِ العبثِ، وقتلِ الوقتِ، وضياعِ العمرِ بما لا فائدةَ فيهِ للإنسانِ والمجتمعِ والوطنِ.

أنقذني الكتابُ مِنْ شعورٍ بحزنٍ ظَلَّ يراودني، يحاصرني، يستبدُّ بي؛ على وطنٍ يُمزَّق، على إخوةٍ رحلوا، ابتعدوا وغابَ سناهم عن ناظري، فوجدتُ في الكتابِ سلوى عن الفقدِ وعزاء عن الرحيل..



أنقذني الكتابُ مِنْ نفسي التي تخلدُ إلى الراحةِ والسكونِ والبلادةِ، فانتشلني لأكون يقظًا، وكفى بالكتابِ موقظًا..!

أنقذني الكتابُ مِنْ ظروفِ الحياةِ المؤلمةِ وصروفِهَا، لم يُسلمني للجنونِ والسَخَطِ والتذمرِ الذي تستدعيه تلك الظروفُ التي حلَّت بوطنٍ منكوبٍ لا يعرفُ للعيشِ الكريمِ معنًى.

فإني أعتقدُ حدَّ اليقينِ أَنَّ مسيرة أيِّ إنسانٍ في هذهِ الحياةِ لا بدَّ أَنْ تبدأَ مِنْ غلافِ كتاب.

وَمِنْ دونِ الكتابِ نكونُ لا شيءَ، وسنظلُّ أمةً ترفلُ في أثوابِ الجهلِ؛ لغفلتنا ورغبتنا عن القراءةِ والكتابِ ولذةِ النظرِ في مطالعته.



الكتابُ والحياة

تمرُّ علينا لحظاتٌ نفارقُ فيها الكتابَ، نبتعدُ عنه، فتبتعدُ عنَّا الحياةُ، وأعني بها حياةَ القلبِ، نشعرُ بالضياعِ والتفاهةِ، واللاشيء، عندما تتوالى الأيام والشهور ولم نكن برفقةِ الكتابِ.

ينتابُنا إحساسٌ عنيفٌ بقسوةٍ في القلبِ، لغيابِ طَلِّ الكلماتِ، وشفيفِ الحرفِ..

ووحدها قوةُ الحرفِ تزيلُ صدأ القلوبِ وقسوتها. وابتعادكَ عنِ الحرفِ جريمةٌ يُعاقبُ عليها قانونُ الحياة.

إنَّ الابتعادَ عنِ الكتابِ مُؤْذِنٌ بخرابِ النفسِ والحياةِ، وسبيلٌ للضياعِ وفقدانٌ للمعنى.

تنسلُّ الأوقاتُ مِنْ بَيْنِ أيدينا دونَ شعورٍ وبلا إحساسٍ، وتمضي الأيامُ والشهورُ، ونحنُ في الفراغِ نسيرُ بلا هوادةَ، فلا شيءَ يملأُ الحياةَ مثلُ القراءةِ بشمولها، قراءة في السطرِ والنظر، ولا شيء يعطيها معنى مثلُ مرافقةِ الكتابِ كواجبٍ مقدسٍ!



تَهَبُكَ القراءةُ القدرةَ على التوازنِ، وإحساسٌ دقيقٌ بالإحساسِ، وإثراءٌ للوجدانِ، وصفاءٌ للذهنِ، وحِدَّةٌ في النظرِ، والزهدُ في تفاهاتٍ يتقاتلُ من أجلها الآخرون.

تمنحكَ القدرة على الابتعادِ عن مواطنِ الصخبِ والضجيجِ، وفقاعاتِ الوهمِ والانتفاخِ الفارغِ، وتعرفكَ بقيمةِ ذاتك، إظهارًا وإنكارًا.

وكفى بالكتابِ مرآةً لصاحبهِ!

وتجعلكَ تقفُ في المكانِ الذي يجبُ أن تكونَ فيه.

إنَّ الابتعادَ عنِ الكتابِ ابتعادٌ عن كلِّ ما أسلفت، واقترابٌ مِنَ السطحيةِ والعبثِ أحيانًا، وهل ثَمَّةَ عَبَثٌ أعظمُ من ضياعِ الوقتِ دونَ صحبةِ الكتاب؟!

وإنَّ المرءَ منَّا ليُصابُ بكآبةِ الهمِ، والإحساسِ بالألمِ، والشعورِ بالتفلتِ؛ كلما ابتعدَ عن القراءةِ والكتابِ، ويدقُّ ناقوسُ التَّمَنِّيَاتِ حينها، بخُلْوة مع النفس، والفرار عن كلِّ العوائق والعلائق، لسانُ الحال:

أنا والكتابُ وحدنا في مكانٍ لا مكانَ للضجيجِ فيه، اغترفُ بيديَّ وأرتوي، وأسدُّ النقصَ الذي ضاعَ مني في فترةِ الغياب، فتعود الحياة مرةً أخرى، وأحسُّ بإنسانيتي مرةً أخرى، ومرةً أخرى أشعرُ بالحياةِ، لأنَّ الموتَ يبدأُ حينَ يموتُ إحساسُنا بالحياةِ.



مكتبتي

إنَّ الروحَ لا تتألمُ لفراقِ الأرواحِ الآدميةِ فقط، إنها تتألمُ أيضًا لفراقِ مَنْ تُحب وإِنْ لَم يكن على هيئةِ إنسانٍ.. فقد تتألمُ لفراقِ ترابِ الوطنِ، وأحجارٍ عتيقةٍ تركتَ عليها شيئًا مِنْ أَثَرِكَ، وقد تتألمُ لأشياءَ كثيرةٍ حُكِمَ بينكَ وبينها بحدِّ الفراقِ..

أما أنا فإني أشكو فراقَ مكتبتي ذاتِ الروحِ الأنقى، أشتهي النظرَ إليها، أتوقُ للجلوسِ بين يديها، في حضنِهَا الدافئِ، وساحة كرمها الذي لا حدَّ له، أنفقُ فيها ليلي وشيئًا من تباريحِ الصباحِ..

في مكتبتي عشتُ ألذ أيام عمري وَسِنِيِّ حياتي؛ بعيدًا عن ضجيجِ الحياةِ، وتوتُّرَاتِ الأيامُ، ومتاهاتِ الطرقِ وتشعباتِهَا، بعيدًا عَنْ محرقةِ العُمرِ في تفاهاتِ الأشياءِ ولمَمِها، بعيدًا عن كل من يتخطفني للعيشِ كريمًا في قلبِ مَنْ أحبُّ وأهوى..

في مكتبتي وَجَدْتُنِي أخلو بنفسي، أحادِثُها وتحدثني، أرنو إليها بصمتٍ، وعيني تَثِبُ لعناقِ النائمينَ في أحضانها..



كنتُ فيها أستعيدُ معاركَ إحيائيةٍ في وقتٍ مضى كانت تسمع في محيطها سنابكُ الخيل، فأعيدها جذعة في ساحِ مكتبتي، أستمتع بلهيبِ أفكارِهَا، وبوارقِ الأقلامِ المتصاعدِ منها..

وأنا في ربوةٍ مرتفعة أشاهد سيرَهَا المحتدمِ بينَ أمراءِ الحرفِ وسادةِ الكلمةِ والفكرِ.

في المكتبةِ ثَمَّةَ روحٌ قدسيةٌ تُحلق، ثَمَّةَ أمانٌ ينسكبُ في أرجائها، ثَمَّةَ اطمئنانٌ ينبعثُ من تقاسيمها، يَهَبُ للقارئ شيئًا من القربِ الجميل..

فيما مضى قِيْلَ إنَّ إمامًا عظيمًا صدح بكلمة عجيبة، يقولُ فيها:

«في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة»، إخاله كان يريدُ العيشَ في عالم المكتبة، وسعادة الكتاب، وجنة (اقرأ).

في مكتبتي يجتمعُ علماءُ القطرِ اليمانيِّ، يحققونَ مسألةً، ويُثيرونَ قضيةً علميةً، يتوسطهم صاحبُ «الفتح القدير»، وابن الأمير، وأمامهم منجنيقُ الشرق ابن الوزير الإمام المُقدَّم، والمقبلي، وصاحبُ «البيان» أبي الخير، وإلى جانبي كان يجلسُ العلامة المعلمي في ثوبه الأخضر البهي، يقطرُ أدبًا وتواضعًا، وحياءً..

في مكتبتي روايات من الشرق والغرب، تجدُ مكانها في الأرففِ الأنيقةِ، في بطن كل رواية قصة لملايين من البشر، يُجسدها فرد، متحدثًا رسميًّا باسم الإنسان المحب، المتألم، المتهالك، المجهول.. باسم الإنسان المهدور..



في مكتبتي ألوانٌ زاهيةٌ، يمتزجُ فيها الأزرقُ الداكنُ، والأصفرُ القاني، والأسودُ الطاغي بهيبتِهِ، ألوانٌ متعددةٌ بتعددِ الكتابِ والأقلامِ المتربعةِ في أماكنها.

أغيبُ عن الناس؛ لألتقي الملوك والساسة، وسادة العلم، وأربابُ الفكر، وأباطرة الأدب، وأمراء الحرف، وأئمة البيانِ والحكمة.

إنها نعمةٌ لا يعرفُ قيمتها إلا مَنْ عاشَ في أوساطِ مَنْ ذكرتُ مِنْ نُجباءِ الزمنِ.

وبين حين وآخر، أعودُ لهاتفي أتحسسُ صورة التقطتها في لحظةٍ عابرة لمكتبتي، أحدق فيها، أتشممها، أدعو الله بصمتٍ أن يعيدني إليها بعدَ غيابٍ طالت لياليه.

ثَمَّةَ دعوةٌ لكل محروم لم يلج بعدُ فضاءَ المكتبةِ الرحبَ، ولم يَدْفِنْ وجهَهُ في بطنِ الكتاب، أدعوه أن يسارع قبلَ الرحيل.. دعوة محب.



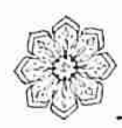
قطعةٌ من نفْسي

لطالما دأبَ الكُتَّابُ في مقدماتِ كتبهم، أن يُصدِّروا الحديثَ بقولهم:

«وقد ألحَّ عليَّ بعضُ الفضلاءِ أَنْ أجمعَ ما تفرقَ من كلامي وكتاباتي في سِفْرٍ واحدٍ؛ ليعمَّ الخيرُ والنفع، فنزلتُ عندَ رغبتهم، وبدأتُ في ترتيبِ هذا الكتاب الذي بينَ أيديكم»!!

بينما وقفتُ على ما كتبه الأستاذ أحمد أمين في مقدمةِ كتابه «فيض الخاطر»:

«هذه مقالات نُشرَ بعضُها في مجلةِ الرسالةِ، وبعضها في مجلةِ الهلالِ، وبعضها لم ينشر في هذه ولا تلك، استحسنتُ أَنْ أجمعَهَا في كتابٍ، لا لأنها بدائع أو روائع، ولا لأنَّ الناسَ ألحوا عليَّ في جمعها فنزلتُ على حكمهم وائتمرتُ بأمرهم، ولا لأنها ستفتحُ في الأدبِ فتحًا جديدًا لا عهدَ للناسِ به؛ ولكن لأنها (قطعة من نفسي)، أحرصُ عليها حرصي على الحياةِ، واجتهدُ



في تسجيْلِها إجابةً لغريزةِ حبِّ البقاءِ، وهي مجموعة أدل منها مفرقة، وفي كتاب أُبيِّنُ منها في أعداد». ا هـ

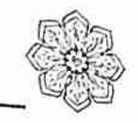
ولقد استوقفتني صراحة الأستاذ أحمد أمين، وإرجاعه لجمعِ مقالاته المفرقةِ في المجلاتِ كونها قطعة من نفسه، لا تستحقُّ الموتَ والنسيان والضياع، وهي كائن حي مفطور على غريزة حبِّ البقاء والتشبثِ بالحياة، مثل أي عضو من أعضائه..

ولم يَدَّعِ -كغيره- أنَّ الناسَ وقفوا صفًّا واحدًا لرجائه أَنْ يجمعَ شتاتَ ما تفرقَ مِنْ مقالاتٍ قيمةٍ تستحقُ أَنْ تكون في دفةِ كتاب! ولو قال ذلكَ لَصَدَقَ.

وصراحةُ الكاتبِ من المحامدِ التي قلَّ أن تجدها في الكُتَّاب، بعيدًا عن إظهارِ الزهد في التخفي خلفَ الآخرينَ، للظهور بمظهرِ الزاهدِ الذي لا يَأْبَهُ لمثلِ ما يهتمُّ به الناسُ عادةً، وما حمله على ذلكَ إلا تطييبًا لخواطرِ مُحبيه!

وقد وقفتُ على كتابٍ جمعَ فيه صاحبه مقالاتٍ صحفية، نُشرت في أماكن متفرقةٍ في صُحفٍ محلية.. وعندما فكَّر في جمعها في دفَّة كتابٍ، راحَ يكتبُ مقدمةً تَشِي بنرجسيةٍ حادةٍ، تشعرُ مِنْ خلالِهَا أنَّ الكاتبَ زهَّدَ في جمعها، مع قوتها، وعظيم تأثيرها، الأمرُ الذي جعلَ منها حديثَ المجالس..

بل -وزعمَ- أنَّ كتاباته ساهمت في إيقافِ بعضِ الملاحقِ الثقافيةِ، لجرأتها في طرحِ الأفكارِ التي لم يُسبق إليها، ثم ختمَ



هذه الملحمة بالمطالبِ المتكررةِ التي لَمْ تنقطعْ، تستجدي مِنهُ أَنْ يجمعَ ما تفرَّق مِنْ مقالاتٍ في بطنِ الكتابِ المُنتظرِ؛ الذي ينشدُهُ القرَّاءُ في أنحاءِ البسيطةِ! فوافق على مَضَضٍ، وأَسْعَدَ الجماهيرَ بقراره الكبيرِ، وطُبعَ الكتاب!!!



سفينة وطوفان!

كانوا كُلما رأوا في يديَّ كُتبًا سَخروا مني!

لطالما تحاشيتُ نظراتِهِمُ الحادةَ،

كنتُ أَقْرَأُ وأرسمُ شكلًا للسفينة،

وكلما رأوني مُنْكَبًّا على القراءةِ مُنْهَمِكًا في الرسم سخروا مني، وبدتْ سُخريتهمْ للعلن.. يقولون: لعلَّ به ضَرْبًا مِنَ السِحرِ، أو به شيءٌ مِنْ جُنونٍ!

أتى الطوفانُ، فرأيتهم يفرون، يهيمونَ على وجوههم، يصرخون، ووحدي كنتُ في السفينةِ أُبْحِرُ فوقَ بحرٍ مِنْ مِدادٍ،

تناسيتُ سخريتَهُم ونظراتِهِمُ الحادة التي كانت تستبدُّ بي ألَمًا..

ناديتهم، لكنَّ أحدًا لم يُجب، بدَّدَ الطوفانُ حياتهم، وأحلامهم، وسخريتهم، ونظراتهم، ورستِ السفينةُ على الجُودي، وقيلَ بعدًا لقومٍ غافلينَ عن قيمةِ الحرفِ والكتاب!



في معرض الكتاب

مضيتُ أجوبُ الخيامَ المنتصبة، أبصرتُ شاعرًا يلقي قصيدة، وطفلة تغني، ورسوما تُعلَّق، تخال نفسكَ في سوقِ (عُكاظ)، شاهدتُ جلبةً سريعةً، ووفودٌ متحركةٌ، نساء، أطفال، وكبار سن، وشبيبة يملؤون المكان..

وما زلتُ أمضي للموضعِ الذي ينامُ فيه، كنتُ أشعرُ بتوترٍ وارتباكٍ، كانت صورةُ اللقاءِ الأولى ترتسمُ أمامي، تدقُّ في قلبي طبولُ الرهبةِ والفرحِ والدهشةِ والاضطرابِ، كلما اقتربتُ من قلبي النائمِ في الرفوفِ المزخرفةِ يشتدُّ وجيفُ قلبي!

دخلتُ الصالة، خيامٌ مصفوفة تملأُ المكان، عقولٌ نائمة على الأرفف، وعظماء يقفونَ بشموخٍ رغمَ مضيِّ السنين، وأنا وحدي أنظرُ من بعيد، أتلصص، أفركُ أصابعي، كلما اقتربت أحسستُ بالرهبة، فجأة؛ وجدتني أقفُ أمامَ قلبي النائمِ هناك.. رأيتُ عليه هالةً من النور، هكذا أحسستُ حينها!



للمرة الأولى التي ارتمى فيها بينَ يدي، حملتُهُ بلطفٍ، قَلَّبْتُهُ برفقٍ، أَضُمُّهُ تارةً، وأشتمُّ ريحته تارة أخرى، كم كانت سعادتي حينما رأيته يقفُ على قدميه يلوِّحُ للناظرين:

أيها المارون؛ قفوا،

هنا شذرةٌ تهامية، خَطَّها مدادُ الألمِ، حروفٌ كساها الحزنُ شيئًا مِنْ صِفَتِهِ فأبتْ أَنْ تنفكَ عنه.. هنا روحٌ مِنْ حياةِ الغريبِ؛ الشريدِ المتعالي الذي سطَّرَ قصة الاغتيالِ في مَتنِ الكتاب!



إعادةُ النظر في التراث

وكانتِ الأمةُ -فيما مضى- أمة لا يجفُّ مداد حبرها، متبحرةً في كلِّ العلومِ والمعارفِ والفنون..

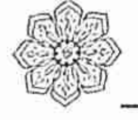
وقد كانَ الرجلُ منهم موسوعة متحركة، قبلَ ظهورِ الطباعةِ وتيسيرُهَا، وتذليلِ المعارفِ وسبلِ البحثِ والاطلاعِ.

فيكتبُ أحدهم كتابًا في فنٍّ ما، فيحصلُ الباحثُ اليومَ على أعلى درجةٍ عمليةٍ، بسببِ الجهدِ المبذولِ في تحقيقه، أو دراستِهِ، أو دراسةِ جزءٍ منه..

ثم يأتي أحدهم مِنْ بعيد، صارخًا بأعلى صوته: لابدَّ مِنْ إِعَادةِ النظرِ في التراث!

وما إعادة النظر في التراث لديه إلا دَفْنُهُ، وإِهَالَةُ التراب عليه.. بينما لم يحدث أنَّ أمة مِنَ الأممِ العريقةِ قد بَنَتْ نهضتها على تجاوز كل التراث!!!

والنظر إلى التراث يجب أَنْ ينطلقَ قبلَ كل شيء مِنْ نيَّةِ



سليمةٍ، هدفها: المقاربة، والتأويل، والإضافة، مع إجلالٍ لتراثِ الأمة الذي نفاخرُ به الأممَ..

وهو جهدٌ بشريٌّ خالصٌ، قابل للأخذِ والردِّ، كغيرهِ مِنْ تراثِ الأممِ السابقةِ كاليونان وغيرهم.. مع إبقاء الوُدِّ بَيْنَ المعاصرةِ والأصالةِ بشعرة دقيقة، إنْ قُطعت اختلَّ التوازنُ، فَإمَّا أن تكونَ مَاضَوِيًّا لا تَمُتُّ لواقعكَ بصلةٍ، أو تُصْبِحَ عصريًّا مُنْبَتًّا مِنْ كلِّ صلةٍ بتراثِ الأمةِ العظيم؟!!

والجمعُ بينهما، كفيلٌ بخلقِ توازنٍ يحفظُ للأمةِ شخصيَّتُها ومكانتها بين الأمم.



عن الأدباء

الكاتبُ والروائيُ الكبير (يحيى حقي)، كان يعرضُ ما يكتبه على العلامة الأديب (محمود شاكر)؛ للنظرِ فيه، وفي المرةِ الأولى التي عرضَ (يحيى) بعض كتاباته، قال له العلامة (محمود شاكر):

«يا يحيى، هذه ليست لغة عربية، صحيح كلام فصيح، ولكن ليسَ لغةً عربيةً، اللغةُ العربيةُ شيءٌ آخر..!!».

ثم تطورَ أسلوب (يحيى حقي)، ليقولَ عنه العلامة (محمود شاكر) فيما بعد:

«(يحيى حقي) كاتبٌ مقتدر، فلا (توفيق الحكيم)، ولا (نجيب محفوظ)، ولا أحد من هؤلاء عنده ما عندَ (يحيى حقي) من تكْوِيْنٍ. ولقد كانت لديه المقدرة ما يبلغُ به أعلى من هذه المرتبة، فلا (نجيب محفوظ) يلحقه في ذلكَ ولا غيره..».

ثم يقول عن (محفوظ) كلمة إنصاف:



«وحتى أقول الحق أرجع لأقول إن (نجيب محفوظ) أيضًا لديه قدرة، ولكنه لم يستمر، فقد شغلته الصنعة عن اكتسابِ القوة واكتساب السليقة الصحيحة».

وعن (توفيق الحكيم) يقول:

«(توفيق الحكيم) لا يقدر أن يقفَ بجانب (محفوظ) ولا بجانب (حقي)».

- الحكمُ على الأدباءِ يختلفُ من شخصٍ لآخر، وكل ذلكَ يعتمدُ على طريقة النقد التي يسير عليها، وعلى أسلوب التذوق في الحكمِ على العمل الأدبي..

ويبقى أنَّ لكلِ أديبٍ ما لا يوجد عندَ الآخر.. ويبقى أنَّ البعض قد يُظلم وينسى، والبعض قد يُحتفى به، وللاحتفاءِ والنسيانِ قصةٌ أخرى تتعدد أسبابها.



الصعودُ على أكتافِ العمالقة

يقولونَ أنَّ الكاتب الشهير (أنيس منصور) لم يكن معروفًا في بداية مشواره الأدبي، فخطرت له حيلة تلفتُ الأنظارَ إليه، فكتبَ مقالًا شهيرًا يهاجمُ فيه العملاق (عباس محمود العقاد)، فأكلَ العملاقُ الطُعم -كما قيل- وردَّدَ قائلًا:

من هذا (الأنيس منصور)؟!

فسطَّر بذلكَ بداية شهرة للأستاذ (أنيس منصور)، والذي أصبحَ فيما بعد من الشهرةِ بمكان.

وعَمِد إلى نفسِ الحيلةِ الأديب (طه حسين)، فقد شنَّ في مطلعِ شبابِهِ حملةً شعواءَ ضدَّ الأديب الكبير (المنفلوطي)، وكان حينها (المنفلوطي) ملءَ السمعِ والبصر، ومقالاته في الصحف يتخطَّفها القرَّاء وتحظى بإعجابهم، وصيته ذاعَ في المعمورة بـ«نظراته» و«عبراته»، فشنَّ (طه) حملةً بدأها بسلسلةِ مقالاتٍ عنيفة عنِ (المنفلوطي) وكتاباته، ليصعدَ على أكتافه، وقد اعترفَ



(طه حسين) بنفسه بذلك -بعد أن ضربت شهرته في الخافقين، وأصبحَ عميدًا للأدبِ العربي- بأنه هاجمَ (المنفلوطي)؛ ليصعدَ على كتفيه؛ مستفيدًا من شهرته الواسعة واسمه الكبير؟!..

- والصعودُ على أكتافِ العمالقة حيلة قديمة متجددة، لا يخلو منها عصْر، ولهذا قالوا: إن كنتَ خاملًا فتشبثْ بعظيم! فإذا ما رأيتَ غِرًّا صغيرًا وثبَ فجأةً يمسكُ بعنقِ العملاق -أيًّا كانتْ صفته- فاعلم أنه يبتغي بذلكَ الصعود على كتفيه للوصولِ إلى بَرِّ الشهرةِ والظهور!!



حيلة كاتب

زرتُ مكتبةً عريقة في (القاهرة)، تُعدُّ من أشهر الدور العربية وأقدمها، وحدثني فيها من أثقُ به، أنَّ كاتبًا عريقًا كانَ إذا اشتدَّ به الحالُ، وضاقتْ به الدنيا، وكثرت عليه الديون، يكتبُ مؤلفًا حولَ أمراءِ الخليجِ، ودهاليزِ الحكمِ، والبيتِ الحاكمِ، وبعض الأسرارِ التي يقفُ عليها، بقلمٍ حادٍّ، وحرفٍ فصيحٍ، وغيرةٍ ظاهرةٍ، ثمَّ يدفعُ بالكتابِ لصاحبِ المكتبةِ للنشر، فيقوم صاحبُ المكتبة الشهيرة، بالتواصل مع أميرٍ من الأمراء، يخبره بخبرِ الكتاب القادم، وأنه سيثيرُ ضجةً مدويةً، لاسيما وكاتبه فلانٌ المشهورُ، وقد طُبِعَ من الكتاب 5000 نسخة.

فما يكونُ مِنَ الأميرِ إلا أَنْ يأمرَ صاحبَ المكتبةِ بحجزِ كلِّ النسخِ؛ لشرائها قبل أَنْ تنزل في المكتبات..!!

وهكذا، تنفرجُ الهموم، وتُسدَّدُ الديون، وتنتعشُ المكتبةُ بالربحِ، دونَ عناءٍ وتوزيعٍ، وبلا وجع رأس!!



صاحب الرسالة

منذُ زمنٍ بعيدٍ طرقَ سَمعي اسمُ الأديبِ (الزيات) ومجلته (الرسالة) الشهيرة، من خلالِ كتاباتِ الأديبِ (علي الطنطاوي) في العديدِ من كتبه ومقالاته، ثم وقعَ بينَ يديَّ كتاب «المُقتبس من وحي الرسالة» للزيات، فعظمت هيبته في نفسي، وفتنتُ بأدبه، وأسَرَني أسلوبه، وظلَّ الكتابُ بين يديَّ لسنواتٍ، كلما أردتُ أَنْ أرتويَ مِنْ معينِ الأدبِ المُشرقِ، فتحتُ «وحيَ الزيات» ودفنتُ رأسي فيه.

ومما ساءني، أني كلما دخلتُ مكتبة، وسألتُ عن كتبِ (الزيات) لا أجدها، بل وأكتشفُ أنهم لا يعرفونَ من هو (الزيات)، ويجهلونَ آثاره الخالدة التي تركها حيةً عِنْدَ مَنْ يدركونَ قيمتها ومكانتها الأدبية؟!

وبإيجاز أقفُ مع (الزيات)، وقصة (الرسالة) التي أنشأت جيلًا من الكُتَّابِ والأدباء، وعلى متنها كتبَ أعمدة الأدبِ والفكر في العصرِ الحديث.



(أحمد حسن الزيات) رائدٌ من روَّادِ الأدب، وعملاقٌ من عمالقةِ الكلمةِ والحرفِ، وعَلَمٌ شامخٌ مِنْ أعلامِ البيانِ.. وإمامُ مدرسةٍ بيانيةٍ لا يزالُ يَنْهلُ مِنْ معينِهَا الصافي الكثيرونَ، مِمَّنْ يهتزونَ لروائعِ الأدب، وهو بقية مِنْ بقايا الكبارِ؛ أربابُ البيانِ المُشرقِ الخالد..

وحَسْبُه ما قيل فيه: «أنه أكْتبُ كُتَّابِ العصرِ الحديثِ، وأنه صاحبُ أعظمِ ديباجةٍ مشرقةٍ عرفها العصرُ، وأقوى أسلوبٍ تفصَّحَ به كاتبٌ، وأحكمُ سبكٍ سَارَ به قلم منشئ، وأسلمُ بناءٍ وضعه أديبٌ».

ففي بداية الطلب، توثقت أواصر الصداقةِ بينه وبين (طه حسين) و(محمود الزناتي)، وفي هذه الصداقة يقول (الزيات): «كنَّا ثلاثة ألَّفَ بينهمُ الطبع والهوى والسن.. ننتقلُ من حلقةِ العلمِ إلى درسِ الأدب، ومن مجلسِ الشعرِ إلى دارِ الكتب، ومن دارِ الكتبِ إلى الجامعة المصرية القديمة، ومن الجامعةِ إلى إدارات الصحف، ونعرضُ عليها ما كنا يومئذٍ نسميه شعرًا».

كما يقول: «كنا نحنُ الثلاثة نعشقُ الكتب، فلم نَدَعْ في الأدبِ كتابًا مطبوعًا أو مخطوطًا إلا قرأناه أو قلَّبناه».

وقد فجعهم الدهرُ بوفاةِ صديقهم (محمود)، فبكاه (طه حسين) بمرثيةٍ حزينة، ختمها بقوله: «لقد ابتدأنا في الرواقِ العباسي ومعنا الشبابُ والأملُ و(محمود)، ثم انتهينا إلى مجمعِ اللغة ومعنا الشيخوخة والذكرى ولا شيء».



(الزيات) والأدباء

عَنَّ لبعضِ الدراسينَ والمهتمينَ بالأدبِ أَنْ يعقدوا موازنةً بين أسلوبِ وأدبِ (الزيات) وأسلوب من سواه من الأدباءِ المعاصرين؛ وهي طريقة طريفة، يهتمُ بها -عادة- المنشغلونَ بأدبِ الموازناتِ أو الأدبِ المقارنِ؛ للوقوفِ على دقائقِ الأدبِ وخصائِصِهِ، وملامح الأسلوبِ عندَ كلِّ أديب.

فالدكتورة (عاتكة الخزرجي) تقولُ مُوَازِنةً بينَ (الزيات) وغيره من كبار الأدباء: «وإني لأرجو ألا أكونَ مجانبةَ الصوابِ، إِنْ قلتُ: إنَّ(الزيات) أوضحُ من (الرافعي)، وأسمحُ من (العقاد)، وأوجزُ من (طه حسين)، على أنَّ أسلوبه يضمُ محاسنَ هؤلاء، الثلاثة جميعًا، أعني: متانة (الرافعي)، وعمق (العقاد)، ودماثة (طه حسين)، فضلًا عن سمته هو».

أما الأستاذ (جمال الدين الألوسي العراقي) فقد عقدَ الموارنة بينه وبين (العقاد) و(طه حسين)، وذكَر أنَّه الأقوى أسلوبًا، والأوضحُ بيانًا، والأوجزُ مقالة، والأنقى لفظًا، يُعنى بالكلمةِ المهندسة، والجملة المزدوجة.. وهو عند الكثرةِ الكاثرة أكْتَبُ كُتَّابِ عصرنا..

وعقد (محمد رجب البيومي) موازنة بينه وبين العديد من الأدباء، فقال عن (الزيات): «وأما (الزياتُ) فيبزُّ الجميعَ في ألفاظه الدقيقة المنتقاة، وأسلوبه الرصين، والتصوير الخيالي..



رسالة الزيات

إنَّ تاريخنا الأدبي المعاصر، لم يحفلْ بموطنٍ يعيشُ فيه قريرَ العينِ، مرفوعَ الرأس، إلا في مجلةِ (الرسالةِ) التي أحيتْ دولةَ الأدبِ، وكانتْ كعبةَ العلماءِ والأدباءِ، وأربابَ الفكرِ، تلكَ الرسالةُ الزاهرةُ التي شرَّقتْ وغرَّبتْ، تحملُ رسالةَ الأدبِ الرفيعِ في كلِّ المعمورةِ.

وُلِدَتِ (الرسالة)، فملأتْ فراغًا، وصادفتْ خلاءً فشغلتْه، وخللًا فَسَدَّتْهُ، وعبثًا فحاولت أَنْ تصدَّ عنه بإيقاظِ النخوة في الرؤوس، والكرامة في النفوس، والرجولة في النشء، وجمعت شمْلَ الأقلامِ المتراميةِ، وباتتْ مَعْلمًا تُشدُّ إليه أنظارُ القراء!

ولقد نشأت مجلة (الرسالة) من خلال فكرةٍ طرأتْ في ذهنِ (الزيات)، كانَ يأملُ أَنْ يُساهمَ في بناءِ دولةٍ (للأدبِ السامي)، تصولُ في أروقتها أقلامُ الكُتَّابِ والأعلام؛ فتغلَّبَ العزمُ المُصَمِّم على الترددِ الخوار، وصدرتِ (الرسالة).



فجاءَ «بيانه» آية الآياتِ في حلاوةِ نسقه، وصفاءِ مورده وجودة تقسيمه».

وما أتيتُ بهذه الموازناتِ إلا ليدركَ القارئ أنَّ (الزيات) من كبارِ أدباءِ العصر، وأميرٌ مِنْ أمراءِ البيان، وما ضرَّ (الزيات) أنَّ الأجيالَ لا تعرفه.. فكم من عظيمٍ لا يُعرف، وكم من تافهٍ بلغتْ شهرته الآفاق..!!

أختم هذا الجزء بكلمةٍ للزيات كنتُ قد حفظتها، تناسبُ الواقعَ الذي نحياه اليوم، ففي مقاله (تاريخ يثور)، استمع إليه يقول: «على ضفافِ الوادي، وهضابِ فلسطين، ورياض سورية، يثورُ تاريخ، ويغضبُ مجد، ويستغيثُ مظلوم».

فتاريخنا يثورُ هيجانًا من فواجعِ الدهرِ، ومجدُنَا يتميزُ غيظًا وعضبًا مما آلتْ إليه أمتنا، والظلمُ بلغَ ذروتَهُ، وأنينُ المظلومين لم يقف..!!



و«يوميات نائب في الأرياف» و«البرج العاجي» لتوفيق الحكيم، و«ليلى المريضة بالعراق»، و«الحديث ذو شجون» لزكي مبارك.

وبعد عقدينِ من الزمن، في العطاءِ والبذلِ والتنوير، احتجبتْ مجلة (الرسالة)، مُعلنةً أفولَ القمر الذي أطلَّ على الدنيا فأحياها بأنوارِ الأدبِ المُشرق، وفي توقفها سَطَّرَ الأدباءُ والكُتَّابُ حروفَ الألمِ والحزنِ على إغلاقِ نافذةِ الحرفِ، ومنبرِ الكلمةِ، وتوقُف (الرسالة) التي سارتْ بخبرها السحاب!

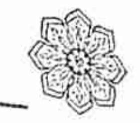
وعندما رحلَ (الزيات)، واحتجبَ عن مُحبيه، كَتَبَ الأدباء أنَّ الأدبَ العربيَّ أصيبَ بخسارتينِ فادحتين: كانتْ أولاهما احتجاب (الرسالة)، وكانتِ الثانية احتجاب (الزيات)!

وإذا كان العظيم -كما يقولونَ- يموتُ في حياته مرتين: مرةً كعظيمٍ، ومرةً كإنسانٍ، فمن الممكن أن نقول:

إنَّ (الزياتَ) ماتَ كذلكَ مرتين: مرةً حينَ احتجبت الرسالة، ومرةً أخرى حين وافاه الأجل.

وكتبَ (الزياتُ) برحيله رسالةً أخرى، أن الأموات هم الذينَ لا أثرَ لهم في حياةِ الناس، وأَنَّ مَنْ تركَ أثرًا يُستنارُ به، فهو حيٌّ، وإِنْ أُهِيْلَ الترابُ عليه.

وهاهم تلاميذُ (الرسالة) الذين خطوا خطواتهمُ الأدبية الأولى على صفحاتها، أصبحوا فيما بعد من أعلامِ الفكرِ والقلم والبيان، يواصلونَ رسالةَ (الزيات) في خدمةِ اللغة والفكرِ والأدب.



كتبَ في صفحاتها رموزُ الأدبِ العربي، وعمالقةُ الفكرِ والبيان، كـ (الرافعي والعقاد، وسيد، وأحمد أمين، ومحمود شاكر، وعلي الطنطاوي، وأحمد زكي، وطه حسين..) وغيرهم من حَمَلةِ الأقلامِ والفكرِ والأدب.

ومضتْ مجلةُ (الرسالةِ) حاملةً رسالةَ الأدبِ الرفيع، ينتظرها القرَّاءُ في كلِّ مكانٍ من العالَمِ الناطقِ بالضاد، وباتت مدرسةً للأدبِ، تصنعُ الذائقةَ الأدبيةَ، وتُحركُ الوجدانَ والشعورَ، وَتَبنِي القيم، وتُحيي قيمةَ الكلمةِ، وترفعُ مِنْ شأنِ الفكرِ، وأضحتْ منارًا للطريقِ القاصدِ، ومنهجًا للإصلاحِ الحكيمِ، وقامت على صفحاتها معاركُ النقدِ والتجديدِ.

وبهذا، استحقت أن تكونَ دولة الأدبِ الرفيع في العصرِ الحديث.

وفي ذلكَ يقولُ (الزيات): «لقد استطاعت المجلة في مدى عشرينَ عامًا أَنْ تُنشئَ جيلًا مِنَ الكُتَّابِ والشعراءِ لهم أثرهم القويُّ، وأَنْ تُنشئَ مدرسةً في الأدبِ لها طابعها الخاصُّ، وأَنْ تُعرِّفَ أبناءَ العربِ بعضَهُم ببعضٍ، على انقطاعِ الأسباب وتباعدِ الديارِ، وأَنْ تجمعَ الشعوبَ والقلوبَ على فكرةٍ واحدةٍ، وغايةٍ واحدةٍ».

ومِنْ جدرانِ صفحاتها الغراء، ظهرتِ العديد من الكتبِ القيمة، التي وُلِدَتْ في أحضانها، أغنت المكتبة العربية، ورفدتها بمادةٍ ثريةٍ، تفيضُ نورًا وجمالًا، يأتي على رأسها: «وحيُ الرسالة» للزيات،

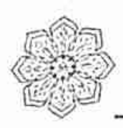


ألم الفقد

«يا قارئي أنتَ صديقي، فدعني أرق على يديكَ هذه العبراتِ الباقية»، هكذا استهلَّ الأديبُ الأريب (أحمد حسن الزيات) رثاءَ ولده (رجاء)، الذي أتاه على كِبَرٍ من العمر، فغمره بالحبِ حدَّ الجنون.. يقولُ عنه: «يأكلُ فأشبع، ويشربُ فأرتوي، وينامُ فأستريح، ويحلمُ فتسبح روحي وروحه في إشراقٍ سماوي من الغبطة لا يوصفُ ولا يُحد».

وقال قبل ذلك: «كنتُ في طريق الحياة كالشاردِ الهيمانِ، أنشدُ الراحة ولا أجدُ الظل، وأفيضُ المحبة ولا أجدُ الحبيب، كنتُ كالصوتِ الأصمِ لا يرجعه صدى، وكالمعنى المبهمِ لا يحدده خاطر، فلما جاء(رجاء) وجدْتُنِي أُوْلَدُ فيه مِنْ جديدٍ».

لكن، مضتِ الأيامُ وارتفعت روحُ الطفلِ الصغير إلى الله، تاركًا خلفه قلب محبٍ تشققتْ جدرانُهُ برحيلِهِ، وتكدَّر عيشُهُ بفراقِهِ،وأظلمتِ السماءُ لغيابِ قمرها الصغيرِ، يقول رحمه الله:



ثم انقضت تلكَ السنونُ الأربع، فصَوَّحت الواحة، وأوحشَ القَفْرُ، وانطفأتِ الومضةُ، وأغطشَ الليلُ، وتبددَ الحلمُ، وتجهم الواقع، وأخفقَ الطبُّ، ومات الرجاء..

وقد كان (لأبي رية) ولدٌ نابه أسماه (مصطفى صادق)، على اسم شيخه (الرافعي)؛ تيمنًا ومحبةً، وقد كان حريصًا عليه، حفيًّا به، يُعِدُّهُ لمقام عليٍّ في العلم والمعرفة، وكان كما كان يصفه مع حداثة سنِّه (نسيجُ وحده: كمالًا، وخلقًا، وذكاءً، وعلمًا).

وقد توفي (مصطفى صادق أبو رية) في مقتبل شبابه، وعمره إحدى وعشرين سنة، وتفطَّر كبدُ والدِهِ لذلك، حتى قال عنه -بعد أن أرَّخَ لوفاته بفجر يوم الخميس أول شهر رمضان سنة 1359هـ: «بأفولِ بدره غابَ معه كوكبُ سعادتي في هذه الحياة».

وإنكَ لتجدُ الألم الذي استقرَّ في قلبِ (الزيات) برحيلِ ولده (رجاء)، وتفطر كبدِ (أبي رية) بوفاة (مصطفى)، وقد كان يحلمُ له بأمورٍ دُفنتْ بموتِهِ، ومثل هذه الحوادثِ تجدُ مكانها في قلبِ الأديب؛ فلا تغادره إلا بلقاءِ من واراهم الترابُ، وتنعكسُ مسحةُ الحزنِ والألمِ في حياتهم وكلماتهم، فلا خيرَ في دنيا بلا حياة تتنفسُ وتجدُ فيها حياتك.



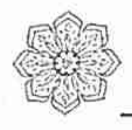
باكثير وأدب التاريخ

(علي أحمد باكثير) أديبٌ مرموق؛ من أبرز كُتّاب الرواية المسرحية في الأدبِ العربي الحديث وأنضجهم في القرن العشرين.

كرَّسَ فكره وقلمه دفاعًا عنِ القضايا الإسلامية والوطنية والإنسانية في مرحلةٍ مِنْ أخطرِ مراحلِ التاريخِ الحديثِ وهي مرحلة الكفاح ضدَّ الاستعمارِ وتحقيق الاستقلال.

ما يُميزه أَنَّ قدرةً عظيمةً لديه في استجلابِ التاريخِ والاستفادةِ منه، وتنزيله على الواقع بمحاكاةٍ مُتقنة تُظهر عبقريته الفذة في التاريخِ والأدبِ من خلالِ المزاوجةِ بينهما، والخروج بروائع ما زال جبينُ الأدبِ يتحلى بها.

استطاع (باكثير) مِنْ خلالِ أعمالهِ الروائيةِ أَنْ يمنحَ التاريخَ الموضوعَ والإطارَ الزمنيَّ، ويعالجه بالشكلِ الفنيِّ، وأسلوب التصوير، والاستنطاق، والخيال، مع واقعيةٍ تكاد تطابق بينَ ما حصلَ ويحصلُ في الزمنِ المعاصر..



(باكثير) كان يُدرك أَنَّ التاريخ يربطُ بين حاضر الأمة وماضيها، ولا مستقبل لأمة مبتورة الصلة بماضيها، وفي التاريخ العربي والإسلامي مواقف عظيمة ورائعة، ينبغي أَنْ يَعِيْهَا الجيلُ الحاضرُ حين تُقدِّم في صورةٍ فنيةٍ مؤثرةٍ، هذه الفكرة اختمرت في ذهن الأديب الكبير (علي أحمد باكثير) الذي جعل مِنَ التاريخِ منطلقًا للأدبِ والإبداع..

ومِنْ خلال قراءتي لـ «أعماله الكاملة» أَلْحَظُ في كتاباته اهتمامه بالإنسان والانتصار لِحَقِّهِ وَقِيَمِهِ.. وقد صوَّر تلكَ العقيدةَ الوثيقةَ بقوله: «أنا كاتبٌ متفائلٌ، مؤمنٌ بالإنسانِ كجزء مِنْ إيماني بالله، وأتمنى على الله أَنْ يُعيدَ العربَ كما كانوا خُدامًا للإنسانيةِ، شهداءَ عليها».

رحل الكاتبُ الأديب (باكثير) مخلفًا وراءه ثروةً أدبيةً قيمةً، تنوعت بين النقدِ، والعملِ الروائي، والأعمالِ المسرحيةِ، والشع..

وفي كل كتاباته انتصرَ فيها لقيم الإسلام والعروبة والإنسان..

(باكثير): منحَ أمتَهُ فرائدَ الأدبِ والإبداعِ، وقُوْبِلَ بالجحودِ والتجاهلِ والنسيانِ...!



على الجسر

(عائشة عبد الرحمن) الملقَّبة بـ (بنتِ الشاطئ) واحدةٌ مِنْ أديباتِ عصرها، وعالمةٌ في اللغةِ وبيانها، كتبتْ بقلمها الرشيق في كبرياتِ مجلاتِ مصر وهي لم تتجاوز الثامنة عشرة، تحتَ إمضاءِ(بنت الشاطئ).

في العشرينات من عمرها، في مرحلةِ الطلب وهي على مقاعدِ الدراسة أحبتِ التلميذة النابغة واحدًا من كبارِ أدباءِ عصرها، وعمودًا من أعمدةِ اللغةِ والفكر والبيان، أستاذها الكبير (أمين الخولي) الذي أحبَّها وأبدى إعجابه بنبوغها وعلمها.

في كتابها الشهير«على الجسر» الذي سطَّرت فيه سيرتها الذاتية بقلمِ الأديب، وريشةِ الفنان، وسمو العالم، وقلب المُحب، نقشت بحروفِ قلبها الموجوع؛ اللقاء الأول الذي جمعها بالأستاذ الجليل، فتقول: «كانَ أولُ درسٍ استمعتُ إليه منه.. منذُ ذلكَ اللقاء ارتبطتُ به نفسيًّا وعقليًّا، كأني قطعتُ العمرَ أبحثُ عنه



في متاهةِ الدنيا، وخضمِّ المجهولِ، ثم بمجرد أَنْ لقيته لم أشغل بالي بظروف وعوائق قد تحولُ دونَ قربي منه، فما كانَ يعنيني قط سوى أَنِّي لقيتُهُ، وما عدا ذلكَ ليس بذي بال، وقد انصرفتُ مِنْ درسه الأول في اليوم السادس من أكتوبر سنة 1936، وأنا أحسُّ بأني ولدتُ من جديد».

وفي مقدمة كتابها عن الأستاذ المفكر الذي أخذَ بتلابيبِ عقلها وقلبها منذ الوهلةِ الأولى للقائه، تقول تحتَ عنوان (أسطورة الزمان): «تجلتْ فينا وبنا آيةُ الله الكبرى الذي خلقنا من نفسٍ واحدة، فكنَّا الواحد الذي لا يتعدد، والفردَ الذي لا يتجزأ، وكانت قصتنا أسطورة الزمان، لم تسمع الدنيا بمثلها من قبل، وهيهات أن تتكرَّرَ إلى آخرِ الدهر!!».

على الجسر، خاتمةُ المطافِ الطويلِ الممتد لحياتها الحافلةِ بالعلمِ والأدبِ والكتابةِ والتدريس والحب، بعد فقدِ معلمها وزوجها الذي ظلت تتذكره حتى آخرَ يومٍ في حياتها! فكتابها على الجسر، ما هو إلا دمْعٌ ووجْدٌ واشتياقٌ، وسَردٌ لقصةِ الحبِّ العتيقِ ولقاءِ المحبوبِ، وأنَّ ما بقيَ مِنَ العُمرِ ما هو إلا جسرٌ تعبرُ فوقه لتصلَ إلى حبيبها بعد رحيله.

بعد موته نَزِفَ حرفُها رثاءً محرقًا، وبكتْه، وما تصورتْ قطُّ أَنْ تعيشَ بعده، بل كانَ اليقينُ أَنْ تُتَابعَ رحلتها بجواره إلى الدَّارِ الآخرة. فكتبتْ عن الأسطورة الذي وقفَ بشموخٍ في آخرِ الجسر ينتظرُ من تسيرُ إليه؛ لتبدأ مجددًا قصة (اللقاء الأبدي).



كانت كلماتها مرصعةً بضياءِ الشوقِ، مشوبةً بأنوارِ العلمِ، ممتزجةً بتاريخ اللقاءِ المقدَّسِ الذي جمعَ بينهما.

قالت في ذكراه الحاضرة: «على الجسر ما بين الحياة والموت، أقفُ حائرةً ضائعةً في أثرِ الذي رحل، أطلُ من ناحيةٍ فأجده ملء الحياة، وألمح طيفَهُ الماثلَ في كلِّ مَنْ حولي وما حولي مِنْ معالم وجودِنَا المشترَكِ، وأتتبع خطاه على دربنا الواحدِ، دفاقةَ الحيويةِ، سخيةَ العطاءِ، وأُمَيِّزُ أنفاسَهُ الطيبة الزكية في كلِّ ذرةٍ مِنْ هواءٍ أَتَنَفَّسُهُ، وأصغي إلى نجواه في الصمت، وفي الضجيج، وفي سكون الخلوة، وفي صخبِ الزحام، وأطوفُ بأجواء عالمنا الرحب الذي ضمنا معًا، فلا أتصورُ أنه الراحل الذي لا يعود».

وفي كتابها «مقالٌ في الإنسان» كتبتْ إليه إهداءً، بوصفه الإنسانَ المُلهِمَ الذي يستحقُّ أَنْ تُدبجَّ له الكلماتِ؛ وبين حياته ومماته، أرهف إحساسها لكتابةِ قصة الإنسان مِنَ المبتدإ إلى المنتهى، فتقول: «إلى (أمين الخولي) الإنسان..

صحبْته في رحلةِ الحياة، فتجلَّت لي وفيه وبه آيةُ الإنسان بكلِّ عظمته وشموخه وكبريائه، وجبروتِ عقله، ومرهف حسه، وعزةِ ضميره.

ثمَّ مضى...

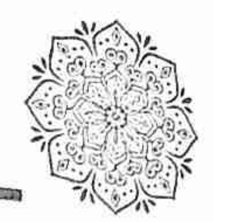
فعرفتُ منه وفيه، مأساةَ الإنسانِ، بكلِّ هوانِهِ وضعفِ حيلتِهِ، وقصورِ طاقتِهِ.

وفيما بين حياته وموته، أرهف إحساسي بقصةِ الإنسان من المبتدإ إلى المنتهى».

وقد أمهلتْهَا الحياة ريثما تقصُّ على مسمعِ الزمانِ حكايةَ النفسِ الواحدةِ، والطيفِ الواحدِ الذي انشطر، ولتذوقَ معاناةَ الابتلاءِ برحيلِهِ، كما ذاقت لذةَ الحياةِ بوجوده!

وبقيت بعد مُضيه على الجسر، ما بينَ الحياة والموت، في متاهة الحيرة والضياع، تستغرقُ في تأملِ مشهد الانفصال الحتمي بين روحيهما. ولا تكفُّ عنِ القول: «كيفَ مَضى.. وبقيتُ!».

«إلى أن يحينَ الأجل،
سأبقى محكومًا عليَّ،
بهذه الوقفةِ الحائرة على المعبر
ضائعة بينَ الحياةِ والموت
أنتظرُ دوري في اجتيازِ الشوطِ الباقي،
وأردِّدُ في أثرِ الراحلِ المقيم:
عليكَ سلامُ الله إنْ تكنْ
عبرتَ إلى الأخرى
فنحنُ على الجِسْرِ..».



تأملات في الإنسان

في عام 1963 م صدرَ الكتابُ بعنوان: «التماثيل المكسورة»، وسرعان ما نفدت طبعته الأولى، ثم خرجَ في طبعةٍ ثانية، يحملُ عنوانًا أخر: «الحبُّ لا يتكلم كثيرًا»، وبعد الطبعة التاسعة من الكتاب، خرجَ بعنوان: «تأملات في الإنسان».

يعالِجُ الكتاب كل ما يتعلق بالإنسان؛ كيفَ يعيشُ في سلامٍ داخليٍّ مع نفسِهِ، وفي سلامٍ مع الناسِ، وكيفَ يتصرفُ المهزومونَ في معركةِ الحياة؟!

ما الأمل.. وما التفاؤل، ما التشاؤم.. ما الأسى.. ما الفرح؟!

كل هذه الأسئلة حاول الكتاب، بما فيه من صورٍ نفسيةٍ أَنْ يجيبَ عنها.

كما أَنَّه يعرضُ لمشكلة الخصومةِ مع الحياة، من خلالِ عرضِ صورٍ متعددةٍ، خاضها المؤلف بتجربةٍ مباشرةٍ، وعرف بعضها مِنْ خلالِ الآخرينِ.

وقبل كل ذلك: كتبَ المؤلفُ الكتابَ لنفسِهِ؛ لانتشالها من الحزنِ والضيق، والانتصارِ على عواملِ الهزيمة الروحية التي أوشكت يومًا أَنْ تَسُدَّ أمامه كلَّ الطرقِ، وأَنْ تَسْلِبَ منه كلَّ حماسٍ للحياةِ وابتهاجٍ بها.

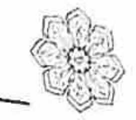
تأثرَ المؤلفُ بالأدبِ الروسي، الذي عُرِفَ بتعمقه في الحديثِ عنِ النفسِ الإنسانيةِ، وتحليلِ نزعاتها المختلفةِ تحليلاً عميقًا مثيرًا مليئًا بالحرارة والصدق..

وقد أسقطَ الكاتبُ العديد منَ الصورِ والقصصِ لتدعيم أفكاره، وكان هذا مزيجًا منَ الجمالِ، يجعل القارئ مطلعًا على العديدِ مِنْ روائع الأدبِ الإنساني العالمي مِنْ خلالِ إيجازٍ يستشهدُ به المؤلف!!

ويقفُ الكتابُ على أغلبِ ما تُضْمِرُهُ النفسُ الإنسانيةُ مِنْ أشواقٍ وأمنياتٍ، فيتحدث عنِ الإنسانِ المُحبِّ، التائه، المثقف، العاجز، القوي.. ويأتي على كل صفات الإنسان، فيعالجها بطريقة سلسة، ولغةٍ جميلة، وتجربةٍ فريدة..

الكتاب مزيجٌ مِنَ الحديثِ النفسيِ، والسيرةِ الذاتيةِ للقارئِ، صاغها عنهم المؤلفُ الإنسانُ الذي عاشَ ما يعيشون، فصمتوا، وتحدثَ هو بلسانهم.

ولهذا جاءت عناوين الكتاب تلامسُ واقع الإنسان، فتحدث عنِ الغربةِ، والعجزِ العاطفيِ، والمغامرةِ، واللذةِ الخطرةِ، والمنتحرون



الذين قادهم الفشلُ والعجزُ للموتِ، وتحدث عنِ الحبِّ، والجنونِ، وإرادةِ البشرِ، والهروبِ منَ الحياةِ..

وختمَ الكتابَ، بصورٍ وخواطر، تُكَرِّسُ بإيجازٍ ما بسطه في ثنايا الكتاب.

أخيرًا:

الكتابُ يقع في (288) صفحة من القطع المتوسط، وكاتبه الناقد الأديب: (رجاء النقاش).

وقد اشتريته من (سور الأوزبكية) بجنيهاتٍ معدودة، وقد كَسَاهُ الغبارُ، وأرهقَهُ طولُ الانتظارِ، فجذبني العنوان، وأنا أحبُّ كل كتابٍ يتحدثُ عن الإنسانِ؛ لأن معارفنا وعلومنا وثقافتنا ما زالت عاجزةً عن فهمِهِ..

ولذا، كُتبَ عنِ الإنسانِ المجهولِ، والمهدورِ، والمعلومِ، والحائرِ... وستظل العديد من حقائق الإنسان وشعوره مجهولةً، عصيةً على البحث والتناولِ، تَقِفُ الآلةُ الماديةُ عاجزةً أمامها.



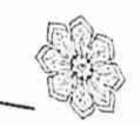
سجن العمر

في «سجنِ العمر»، يقولُ (توفيق الحكيم): «من سوءِ حظنا أننا نولدُ في غيبوبةٍ تامة من عقولنا، فكل عضوٍ من أعضائنا يتحركُ حينَ تُوْلَدُ، إلا ذلكَ الجزء منا الذي ندركُ به الحياة التي هبطنا إليها».

- ثمَّ يتساءل: «ترى ماذا كان يحدثُ لو أننا واجهنا الحياة بعقولٍ مُدركة منذُ اللحظة الأولى؟!».

- فيجيب: «كانَ يحدثُ العجب.. كنَّا نفقدُ عقولنا للفور من هول الأعجوبة، أعجوبة الحياة في انكشافها المفاجئ أمام القادمِ مِنْ عالمِ الظلامِ والوحدةِ والعدمِ!».

ويبين (الحكيم) مدى قدرة الأيام على تطبيعِ الإنسانِ وتهيئتِهِ لقبولِ الحياةِ دونَ صدمةٍ أو دهشةٍ مفاجئةٍ.. فيقول: «ولكنَّ الحياة تنكشفُ لنا على مهل سترًا بعد سترٍ، وحجابًا بعد حجابٍ، وتتمزقُ من حولنا الأغلفةُ، غلافًا بعد غلافٍ.. فنعتاد الحياةَ، ونغفل عن الأجوبة فيها».



في «سجن العمر»، يأخذ الحديث عن نفسه منحًى نفسيًّا، متخمًا بالإحساس، والتساؤلات، والتأثيراتِ المحيطةِ بتكوين الشخصية وسيرها وبنائها وتطبعها.

سَمَّى كتابه «سجن العمر»؛ لأنه أفرطَ في الحديث عن بداياته، عن قصةِ الخروجِ الأولى، وفي تصويرِهِ لهذِهِ اللحظاتِ، تتضحُ لكَ سببُ التسمية؛ لأنه كأي إنسانٍ لم يختر والديه.. ولم تكن له أي قدرةٍ في صغره تعبر عن حياته التي أرادها .. ولهذا عندما كتبَ عن سيرته في شبابه، سمَّاها (زهرة العمر) تلكَ التي تفتحت على كلِّ شيء أرادها الفتى المسجون في مرحلة الصغرِ الأولى.

وعندما تحدث عن سبب خروجه من عالمه في بطنِ أمه دونَ ضجيج وصراخ، كغيره من الأطفال، قال: «لعلَّ بلساني عِلَّةٌ مِنَ العللِ، أو أنه الضعفُ العامُ، أو أنني آثرتُ الصمتَ والسكونَ؛ بخلًا أو اقتصادًا في صياحٍ لا طائل تحته!!».

وهنا يكرسُ ذاتَ المفهوم، من كونكَ في سجنٍ لا طائلَ فيه من البكاءِ من عدمه..

ففي سجن العمر وزهرته، سيرة ذاتية تتسقُ مع «الأيام»، و«حياتي»، و«أنا»، و«سبعون»، و«هوامش التكوين»، و«ماذا علمتني الحياة»، و«حصاد السنين»..



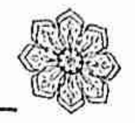
شهوة البدايات

لَكَمْ تمنيتُ في مختلفِ مراحل عمري أَنْ أرى اسمي منشورًا ومقترنًا بمقالٍ أو كتابٍ مِنْ تأليفي، وقد حققتُ هذا المرَّة بعدَ المرَّة، حتى أصبحتْ رؤيةَ اسمي منشورًا تكادُ تعادلُ رؤية اسم شخصٍ لا أعرفه.

وعندما تقدمتُ في السن فقدتُ الثقةَ في أشياءَ كثيرةٍ كنتُ أعلقُ عليها الآمال كمصدرٍ من مصادرِ السرورِ، ثم تبينتُ أنني بالغتُ في قدرتها على تحقيقِ ما كنتُ أتوقعه. اهـ «ماذا علمتني الحياة»، لـ: (جلال أمين)، (صـ: 335).

قلت: وهذه مرحلة مبكرة، تحدثَ عنها العديد ممن كتبَ عن نفسه منَ المثقفين والعلماء والأدباء وأرباب الفكر، فتراهم يتذكرونَ اللحظةَ التي نشروا فيها شيئًا مِنْ أعمالهم منذُ عقودٍ خلت..

وهذه مرحلة ملتصقة بالنفسِ الإنسانية؛ وهي مرحلة البدايات



وما تحمله مِنْ سذاجةٍ وصدقٍ، ومِنْ سرورٍ وابتهاجٍ يظن من خلالها أنه وصلَ سدرةَ المنتهى!!!

ثم ما تلبث الأيام تعمل عملها فيه، حتى يصلَ لمرحلةٍ ينكرُ فيها ذاتَهُ؛ لتطلعه لآفاق سامية يرنو لتحقيقها ويسعى لامتلاكها، فإذا ما تمكَّنَ منها واستقرت في نفسِهِ، تطلَّع لما هو أعظم وأسمى فيما يراه..

وهكذا يعيشُ المثقف والمفكر والعالم في قلقٍ معرفيٍّ لا يقعده ولا يهدأ منه إلا بمفارقةِ الروح الجسد.

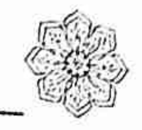


ماذا علمتني الحياة

استوقفني مقطع بديع سطّره الدكتور (جلال أمين) في كتابه الممتع: «ماذا علمتني الحياة» وهو يروى موقفًا حدثَ بينه وبين أبيه، وهو في مقتبل شبابه، ووالده في شيخوخته التي أججت فيه حاجة الأنس واللقاء والحديث. ويظهر منه بوضوح إلى أي مدى يحتاجُ الآباء، عندما تتقدَّم بهم السن، إلى التواصل مع أبنائهم، هروبًا من وحدتهم، وشوقًا إلى الحديث فيأي موضوع يشعرهم بوجودِ الآخرين حولهم.

يقول الدكتور (جلال أمين):

«لازلتُ أشعر ببعض الألم ووخز الضمير حتى الآن، كلَّما تذكرتُ منظر أبى وهو جالس في الصالة وحده ليلًا، في ضوء خافت، دون أن يبدو مشغولًا بشيءٍ على الإطلاق، لا قراءة ولا كتابة، ولا الاستماع إلى راديو، وقد رجعت أنا لتوي من مشاهدة فيلم سينمائي مع بعض الأصدقاء. أحيي أبى فيردُّ التحية، وأنا



متجه بسرعة إلى بابِ حجرتي وفى نيتي أن أشرع فورًا في النوم، بينما هو يحاول استبقائي بأي عذر هروبًا من وحدته، وشوقًا إلى الحديث في أي موضوع. يسألني أين كنت فأجيبه، وعمَّن كان معي فأخبره، وعن اسم الفيلم فأذكره، كل هذا بإجابات مختصرة أشد الاختصار وهو يأمل في عكس هذا بالضبط. فإذا طلبَ منى أن أحكى له موضوع الفيلم شعرتُ بضيق، وكأنه يطلبُ منى القيام بعملٍ ثقيل، أو كأنَّ وقتي ثمين جدًا لا يسمحُ بأن أعطي أبي بضعَ دقائق».

ويحاول الدكتور (جلال أمين) أَنْ يفسر سبب تصرف الأبناء بهذا الشكل تجاه آبائهم، وعدم تفهمهم أو تقديرهم لهذه الاحتياجات، فيقول:

«لا أستطيع حتى الآن أَنْ أفهم هذا التبرم الذى كثيرًا ما يشعر به شاب صغير إزاء أبيه أو أمه، مهما بلغت حاجتهما إليه، بينما يبدى منتهى التسامحِ وسعةِ الصدرِ مع زميلٍ أو صديقٍ له في مثلٍ سنِّهِ مهما كانت سخافته وقلة شأنه.

هل هو الخوفُ المستطيرُ مِنْ فقدانِ الحريةِ والاستقلالِ، وتصورِ أيِّ تعليق أو طلبٍ يصدر مِنْ أبيه أو أمه وَكَأَنَّهُ محاولةٌ للتدخلِ في شئونه الخاصةِ أو تقييدٌ لحريته؟!!

لقد لاحظتُ أحيانًا مثل هذا التبرم مِنْ أولادي أَنَا، عندما أكونُ في موقفٍ مثل موقف أبي الذى وصفته حالًا، وإِنْ كنتُ أحاول أَنْ

أتجنبَ هذا الموقف بقدر الإمكان لما أتذكره مِنْ شعوري بالتبرمِ والتأففِ من مطالبِ أبى. ولكني كنتُ أقول لنفسي إذا اضطررتُ إلى ذلك إني لا أرغبُ في أكثر مِنَ الاطمئنانِ على ابني هذا، أو في أن أُعَبِّرَ له عن اهتمامي بأحواله ومشاعره، فلماذا يعتبر هذا السلوك الذى لا باعثَ له إلا الحب، وكأنه اعتداء على حريته واستقلاله؟».

وما ذكره الدكتور (جلال أمين) وصْفٌ دقيقٌ للعلاقةِ النفسيةِ بين الابن ووالده، فإذا كانَ هذا شعوره تجاه أبيه، المفكر المثقف الذي يرجى النَّاس رؤيته والحديث معه، فما ظنكَ بغيره؟!

ولعلَّ الخوف المستطير مِنْ فقدانِ الحريةِ والاستقلالِ، والشعور بالاستغناءِ، والتفاوتِ بينَ النظرِ للأمور والأشياء بينَ الوالد وابنه، والهوة الواسعة بين ثقافةِ الحِقْبَتَيْنِ التي يمثلانها، كل ذلك وغيره، يفسرُّ ما ذكره الدكتور (جلال أمين) من وصفه لمشاعره تجاه أبيه.



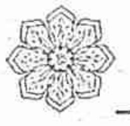
القوقعة

القوقعة -يوميات متلصص- تجربةٌ شخصية لسجينٍ بتهمة الإخوان المسلمين مدتها أربعة عشر عامًا!!

يومياتٌ مؤلمةٌ حدَّ البُكاء، ما إن تبدأ قراءتها لا تستطيعُ تركها حتى تنتهي منها.. كمُّ الألم والمهانة وسحق الإنسانِ وقتلِ الكرامة في فصولها تشدكَ حتى النهاية..

العائدُ من (باريس) شابٌ مسيحي يعملُ كمخرج سينمائي درسَ في جامعات فرنسا أراد أَنْ يُقبِّل تراب وطنه أثناء العودة إليه بعد غيابٍ طَويل، تم إيقافه في مطار (الوطن) ليمضي في السجنِ أربعة عشرَ عامًا من العذاب والذلِّ والموت والفراق والقسوة والإهانة والألم.. دونَ أن يعرف سببَ وجوده في هذا القبو -السجن الصحراوي- الذي خُصِّصَ للفتكِ بالإنسانية دونَ رحمةٍ!

القوقعةُ من أدبِ السجون، في طياتها مشاهدُ وتفاصيلُ صادمةٌ موجعة، يفرغها (مصطفى) من «ذاكرته» دونَ أَنْ يُخَفِّفَ



علينا حدتها، ومع ذلك لا تَستطيع إلا أَنْ تُكملَ القراءةَ حتى تصلَ لنهايةِ الوجعِ المسطورِ.

عند الانتهاءِ مِن قراءةِ الكتابِ: تدركُ مدى الوحشية الطاغية لدى رجالات الأمنِ والمخابرات في الدولِ المستبدة، الذين جعلوا مِنْ زعمائهم آلهةً يعبدونهم مِنْ دون الله!!..

تكتشفُ الأسبابَ التي صنعتِ التطرُّف وجعلته واقعًا معاشًا، وَتيارًا جارفًا لشبابٍ غَضٍّ، مسّهم ذُلُّ الطغاةِ أو سمعوا به من غيرهم.

إنَّ الأنظمة المستبدة -في وطننا العربي- ارتكبت جرائمَ في حقِّ الأمةِ المسلمة ورجالاتها بدمٍ باردٍ؛ حفاظًا على الكرسي وزهو السلطةِ الزائف.

إِنَّ الثوراتِ العربيةِ التي قامت على هذه الأنظمةِ الطاغيةِ لم تكنْ مِنْ فراغٍ.. وإنّ الظلمَ الذي وَسع دعاةَ الحقِّ والفضيلةِ والحريةِ استحالَ في لحظةٍ ما لطوفانٍ خرج يسحقُ جدرانَ الآلهة التي مزَّقتِ الإنسانية بشرورها وظلمها وقسوتها.

ما ستقرأه في يومياتِ هذا السجينِ شيءٌ فظيعٌ مؤلم، يُسفر عن كمِّ الحقدِ والكراهية والجحود، والمروق والفسوق الذي يحمله الزعيم المفدّى إلى آخرِ مراقبٍ وجندي في السجن الصحراوي، الذي يضمُّ بين جنباته أشرفَ وأفضلَ مَنْ أنجبتْهُمْ بلادُ العروبةِ.

الكتابُ دَفْعةٌ مِنَ الألم، نَثَرَهُ مَنْ عاشَ في القوقعةِ ردحًا مِنَ الزمنِ.



ألف شمس ساطعة

انتهيتُ مِنْ قراءةِ «ألف شمس ساطعة» للدكتور خالد حسيني، في الصفحة المائة الأولى مِنَ الرواية أحسستُ بالقلقِ ينتابني، الدهشة، المجهول والتوقعات القادمة في طي الصفحات المثخنة بالألم، كنتُ قد قرأت روايته الأولى «عداء الطائرة الورقية»، وكتبتُ فيما كتبتُ عنها:

«الرواية ملحمة تحملُ بين طياتها الصداقة، والأبوة المضطربة، والحنان المفقود بسبب تراكم الزمنِ المر، والخطيئة التي يبقى أثرها على مرِّ السنين، التاريخ، الذكريات، الحرب، الموت، الضمير، التضحية والحب، القسوة التي تتلبّس الإنسان، فتنزع الصفة منه ليبقى إلى الحيوان أقرب، الرحيل الممزوج بالألم هروبًا مِنَ الموتِ الذي حلَّ في أرض الأفغان في لحظةٍ ما..

ثَمَّةَ أفكارٌ حاول الكاتبُ أَنْ يصبغها على الرواية من خلالِ توجهِهِ، لا نتفقُ معه فيها.. لكنَّ الرواية كعملٍ أدبي تستحقُ الإشادةَ

والتنويهَ، وقد حصدتْ جوائزَ عدة.. فلغتها رصينة، وأُسلوبها شيق، وجزالة ألفاظها مِنَ الروعة والجمال بمكان».

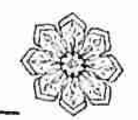
وهو ذات الكلام الذي مِنَ الممكنِ أَنْ أصفَ به ملحمة «ألفِ شمسٍ ساطعة» التي اخترقت جدران ثلاثين عامًا مِنْ تاريخ الأفغان، وفككته؛ لتضعه بين يدي القارئ بصورة مثيرة، وسرد دقيق، ومقدرة مدهشة على القص، وذِكْرِ أدقِّ التفاصيلِ التي يأخذك فيها ببراعة، وتمكن قَلَّ أَنْ تجدَ له مثيلاً..

الرواية جاءت للتاريخ، والتاريخ هو مَنْ يحكمُ في مدى رؤيةِ وصدقِ المضمونِ الذي ساقته الرواية، المسطور بمدادِ الألم الذي يفتكُ بالروح، ويجعلكَ في متاهات التمزقِ والتَّشَظِّي، تسير ويداك على قلبك؛ من وعثاء الحياة في زمن الحروب القذرة!!.

الرواية أتت تُبَشِّرُ بالغزوِ الأمريكيِّ الآثمِ على أرض الأفغانِ، وجعلتْ منه فتحًا وخلاصًا وتحريرًا!!

واستطاع أَنْ يصور للقارئ أَنَّ ثَمَّةَ وحوشٌ في إِهَابِ إنسانٍ كانوا قبل التحرير الأمريكي هم مَنْ يحكمون أفغان الموتِ، و(كابل) الخراب.. ولهذا وجب عليَّ التنبيه على هذه الفكرة المغروسة في متنِ الكتاب.

خالد حسيني بروايتيه «العدَّاء»، و«ألف شمس ساطعة» أخذ مكانه كواحد مِنْ أهمِّ الروائيين في العصرِ الحديث.



«أَلْفُ شمس ساطعة» إنجاز أدبي جديد -كما وصفها النقاد- وملحمة مثيرة، تحطم القلوب، ورواية لا تنسى، ونصرٌ أدبي مبين.

إنها قصة عنِ الزمنِ الذي لا يغفر، عنِ الصداقةِ التي تنشأ بعدَ خصومةٍ، وعن الحب الذي يصمدُ أمامَ أعتى الرياح.



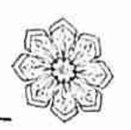
رحيلٌ صامت

عندما وقعتْ عينه في عينها بعد فراقٍ دامَ عشرةَ أعوامٍ، أدركَ أنَّ الحبَّ لا يعرفُ آداب الاستئذانِ، لم يستطعْ دفعًا لرياحِ الحبِّ الهوجاءِ التي اجتاحت كل ذرةٍ في قلبِهِ وكيانِهِ، وقعَ في شباكِ حبِّهَا، وأغرقها في بحارِ حبه، لكنه لَمْ يَحْتَطْ جيدًا لعاداتِ القومِ الذينَ لا يؤمنونَ بأنَّ الحبَّ لا يعرف (النقصان) وأنَّ الحياة لا كمالَ فيها، وكلُّ نقصٍ يجبرُ بالحبِّ لا بشيءٍ سواه!

أحبَّ (هَتَّان) ابنة عمِّه (حنين)؛ لكنها كانت (بكْمَاء) -وهذه منقصة في حقِّ الفتاة- كفيلة بأن تمنعَ عنها أي رجل (سليم) يفكِّر في التقدمِ لها!

إلا أَنَّ (هَتَّانَ) لم يعتبره عيبًا ولا نقصًا، ورأى في صمتها سيمفونيةً رائقةً تترنحُ لسماعها جحافلُ الليلِ؛ لتشرقَ شمسُ الحبِّ تعلنُ الانتصار!

بسببِ الخوف الحاد مِنْ كلامِ الناسِ لكونها (بكماء) وقفَ



الجميع في وجهه، ورفضوا فكرةَ زواجه منها؛ حَكَمَ المجتمعُ بحدِّ الرحيلِ، ليذبح الحبُّ الطاهرُ بين شابٍ وفتاةٍ رأى فيها الطهرَ والجمالَ، ولَمْ يَرَ فيها الآخرونَ إلا صمتها!

يقول (هَتَّانَ) -بعد أن تزوجت (حنين) برجلٍ (أبكم) مثلها-: «يشتدُ حزني كلَّما ذكرتُ أَنَّ مجتمعنا كلهُ وقفَ ضدنا صارخًا: لا يليقُ برجلٍ سليم أن يرتبط بأنثى (ناقصة)!! وكأنه يضعُ لنا معاييرَ للحبِّ لا يجدرُ أَنْ نُخِلّ بها لننال تبريكاته بهذا الحب.. يحزنني أنَّ امرأةً مثلكِ طاغيةَ الجمالِ وحسنةَ الصفاتِ لا تملكُ فرصًا كثيرةً لتحيا كما تريدُ، ومع مَنْ تريدُ، وتُجبرُ على أَنْتكون لمن هُمْ على شاكلتها.. أجرموا في حقّنا يا حبيبتي، أبعدونا عن بعضنا ببندٍ (لا يصلحُ) أو (لا يليق)، وتجاهلوا أننا معًا نستطيعُ أَنْ نتخطَّى عقبةَ الصوتِ؛ لأكونَ لكِ صوتكِ وتكونينَ لي صمتي!!».



أيامٌ في اليمن

في إحدى زياراتِ الكاتبة الكويتية (ليلى العثمان) لليمن شعرت بوخزاتِ الضميرِ، وأحسّتِ بندمِ السنينِ التي ضاعت دونَ أَنْ تفكِّرَ في زيارةِ البلدِ المُدهشِ، الساحرِ، الزاخرِ بالجمالِ والطيبةِ، (جنةِ الدنيا) -كما تصفها- في كتابها تركتِ القلم يكتبُ مِنْ صفحةِ القلبِ العاشقِ، تهذي بكلماتٍ مفعمةٍ بالجمالِ والدلالِ، مرصعةٍ بالحبِّ والتقديرِ، كمواطنٍ مخلصٍ لترابِ وطنه..

في زيارتها الأولى طَوَّقَتْهَا (صنعاءُ) بسياجٍ مِنَ الورودِ والفرحِ، جعلها تنسى أَنْ تتصلَ بأبنائها.. وحينما فعلت قالت لهم كلمةً واحدةً: «أنا في الجنة». ومن في الجنة لا يفكرُ بأهلِ الأرض؟!!

زيارتها لم تكن مجرد رحلة لأيامٍ معدودة، بل كانت عمرًا مِنَ الطوافِ حولَ الجنةِ، كانت حلمًا نادرًا سَيَظَلُّ ضوؤُهُ وعطرُهُ ورذاذُهُ يبللُ جفافَ الأيامِ..



ستظل ذكرى لا تُمحى بممحاةِ السنين الغليظة، ستظلُ وخزاتُ الضميرِ تعاتبها: لماذا لم تفكري بزيارةِ اليمنِ مِنْ قبلُ؟!

عند رحيلها بعد أَنْ دقت ساعةُ الوداعِ، كان الحزنُ يشيعها إلى المطار، بعد أيام مِنْ قصةِ حبٍّ كبيرٍ عَبَّرَتْ عنه بقولها: إنَّ قلبَ المرأةِ لا يعشقُ سوى الرجلِ، لكنه هذه المرة عَشِقَ اليمنَ.



حكاياتُ مدنٍ بينَ الهامشِ والمتن

عند الانتهاء من قراءةِ كتاب «حكاياتُ مدن بينَ الهامشِ والمتن» للكاتب (جمال حيدر).. أدركتُ أننا نعيشُ خارجَ حدودِ الكتابِ والزمنِ، لا نَصِيْبَ لنا في صدْرِ المتنِ والهامش..!

لحظاتٌ ممتعةٌ قضيتها في أروقةِ المدنِ التي لا تنامُ.. ابتداءً مِنْ (أثينا): أيقونة الشرق، مرورًا بـ: (قصْرِ الحمراءِ)، و(دمشق) التاريخ، و(الدار البيضاء) الممتلئة بالجمالِ والجلال، استوقفتني كثيرًا (برلين) الساحرة المجنونة التي نفضت رمادَ الموت وعادتْ للحياةِ، ووقفتُ بخشوعٍ عندَ تاريخِ (القاهرة) المجيد؛ سماءٌ بألفِ مئذنة..

طوّف بنا كثيرًا في (إسطنبول) [فسيفساء التناقضات] كما يسميها، وتركَ قلمه وهو يكتبُ عن (لندن)، عاصمة التناقضاتِ والوئام، المدينةُ التي لا تنام.

نحنُ إذن خارج أسوار الكتاب.. لم يسعنا المتنُ والهامش،



ولو قُدِّرَ للكاتبِ أَنَّ يحطَّ رحاله في أرضِ اليمنِ قبل أَنْ تُلبَّدَ بغبارِ التاريخِ وعناكِبِهِ لاحتاج لساحةٍ واسعةٍ مِنْ صفحاتِهِ التي ملأها عن مدنِ الشرقِ والغربِ.

سيكونُ مُرغمًا أَنْ يصفَ السِحْرَ المستوطنَ في (صنعاء)، وعن شموخِ المآذن، وحكاية الحجارة العتيقة، ورائحة المكان التي تتشبث بالقلب، وعن فتنة الاحتضار، حكايةِ الغروب الآسر، حينما تكون في ربوةٍ مرتفعة؛ فتشاهدها كحسناء حلت ذوائبها الطوالَ..

وسيكتب كثيرًا عن (الحالمة) ومعالمها..

وفوضى الجمال المتناثرِ في (إب)..

ولو قُدر له أن يهبطَ لمدينة (الحديدة)..

وثغر اليمن:(عدن)..

لأصبح عنوان الكتاب: «حكايات مدنٍ بين القلبِ والتاريخ».



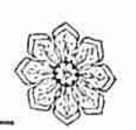
الكتاب اليمني

مع انطلاقِ فعالياتِ المعارضِ الدولية للكتاب، نطالعُ العديدَ من الأبحاثِ والدراساتِ العلمية المعاصرة الرصينة -في غالبها- لا سيما مِنْ بعضِ الدُور العريقة، والمراكز البحثية المتخصصة المشهودِ لها بالكفاءةِ والتميُّز.. تدرسُ ما استجدَّ مِنْ أحداثٍ، وتقارعُ الأفكار بفكرٍ راسخ، وتسلطُّ الضوءَ بعينٍ ثاقبةٍ على دراسةِ التراثِ بنظراتٍ جديدةٍ، تبني ولا تَهْدِمُ، تنقدُ بعدلٍ، وتضيفُ الجديدَ، وترصدُ حركةَ الفكرِ والتاريخِ.

ما أريدُ قوله أنَّ الكِتابَ اليمنيَّ المعاصرَ غائبٌ في مثل هذه المحافلِ الثقافيةِ الكبرى.. وإذا وُجدَ ضاعَ في الزحام..!

قلتُ مرةً لصديقي: لماذا لا نجدُ الكتابَ اليمنيَّ ينافسُ ويخرجُ مِنْ حيزِ المدينة التي طُبع فيها إلى فضاءِ العالمية..؟!

لماذا لا نرى أعمالًا فكرية، وأدبية، وتاريخية، وشرعية، وعلمية.. تأخذُ طريقها للترجمة..؟! للحقيقة نقول: إنَّ ثَمَّة أعمالٌ



يمنيةٌ معاصرةٌ تستحقُّ الإشادةَ والفخرَ.. لكن نحنُ نطالبُ بالمزيد؛ لتحريكِ عجلةِ الإنتاجِ الفكريِّ، والعطاءِ المعرفيِّ المتجددِ..

ونتمنى أَنْ نجدَ -بعد انقشاعِ الأزمة- دُورًا تُعنى بطباعةِ الأعمالِ البحثيةِ في مختلفِ التخصصاتِ، والترويج لها، ودعمِ أصحابها.. وأخرى تُعنى بجوانبِ الإبداع في ربوعِ الوطن.

ما دعاني للتنويه عن غيابِ الكتابِ اليمني وخمود الحراك الفكري؛ أَنَّ أحدهم سألني: هل قرأتَ كتابَ «البيان»؟! قلتُ له: تقصدُ «البيانَ» (لأبي الخير العمراني) في الفقه الشافعي؟!قال لي: لا لا، أقصدُ «البيان لما عليه جامعة الإيمان!!» طبعًا تذكرتُ على الفور العناوين والدراسات القيمة التي تدفعُ بها رحم المطابع كل يوم في مختلفِ الأقطار، ورثيتُ حالَ الكتابِ اليمنيِّ، والمؤلفِ اليمنيِّ، وحال اليمن برمته..

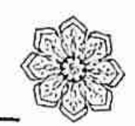


تزوّجي بِرجلٍ يقرأَ!!

للفتاة:«تزوّجي بِرجلٍ يقرأ؛ لأنكِ ستكونينَ له كتابُ الحياةِ الناطق».

تزوجي رجلًا يقرأ؛ لأنه سيسافرُ بكِ إلى مدنٍ لَمْ يَزُرْهَا، وأزمنةٍ لَمْ يشهدْهَا، سيمرُّ بكِ من شوارعِ (دمشق) العتيقة، سيُحدثكِ عن مكتبِ (عنبر)، وأجواء (باريس)، ورصافة (العراق)، وسدود (اليمن) وجامعها العتيق، ونيلِ (الفسطاط)، و«حكاية مدنٍ بين الهامشِ والمتن»، وتدخلينَ بصحبته: «مدنًا لا يعرفها العابرون»، وستمكثينَ معه «أيامًا في اليمنِ» السعيد، لتنتقلَ الروحُ مرفرفةً في سماءِ (إسطنبول)، في «رحلةٍ في عالمِ الفرسان»، وستعرفينَ «الفرسان» آخرَهُم، ومن عادَ منهم من أريجِ (الفريدِ الأنصاري).

ستقعدينَ معه «تحتَ ظلالِ الزيزفون»، سترينَ روحه تنزفُ وهو يحكي قصة «ماجدولين»، مُفضيًا لكِ عن تعابيرِ الوجْد والفقدِ والحنين والشوق، وسيروي لكِ حكاية الطموح المتوثب



في «الدموعِ على سفوحِ المجد»، طموحٌ مختلطٌ بفاجعةِ الرحيلِ..

وسيحكي لكِ عن (الجزائر)، وتناقضُ الحياةِ والثورةِ، والزيفِ والشهداءِ والحب من خلالِ «ذاكرة الجسد» التي لم تمحُ ذكرياتِ الأيامِ والسنين، وسيجعلكِ تذرفينَ الدمع على فراقِ القسّام (بطل لكلِ الغزاة) الذينَ تكالبوا على صَدْرِ أمتنا، ستودينَ رؤية «عذراء جاكرتا»، و«الأنثى العبرية» التي لم تستسلم لمحنِ الأقدارِ، وسيحملكِ معه في «رحلةٍ إلى الله»، واصفًا لكِ ظُلْمَ المجتمع للفاتنة الصامتة عندَ سردِ «حبيبتي بكماء»..

وستعرفينَ أسماء لامعة في عالمِ القلم والفكر لم يكن لكِ بها علمٌ من قبل، وتَعُبِّيْنَ من سيرة «العظماء المائة»، وستكتشفينَ عن كثب عَلَمًا معاصرًا مَلأَ الدنيا علمًا وفقهًا وفكرًا، «ابنُ القرية والكُتّاب» صاحبُ النونيةِ الشهيرة. في وقتٍ ما؛ ستتمنينَ أن تكوني شبيهةً بـ «المرأةِ المفقودة» التي يُبحثُ عنها، وستعزفينَ عزوفًا عن الدنيا وأنتِ تعيشين لحظةً بلحظةٍ مع «البؤساء»، وستأنسينَ بـ: «طفولةِ قلب»، وستجدينَ نفسكِ في «بناتي»..

وسترتقي الروحُ عندما تحلقُ في سماءِ «المساكين»، وتجاورُ القمرَ في حديثٍ معه، وستشعرين وأنتِ تكتبين: «رسائل الأحزان»، سيراودكِ إحساسٌ بالإلهام في «وحي القلمِ» و«الرسالة»، وستبكينَ من أجلِ لويس وهيلين و«قصص الحياة» التي نزفها مداد الألم..

في لحظةٍ ما، ستحدثينَ نفسكِ؛ ليتني من قيل لها: «أريدُ أن



أغازلَ مثلكِ»، ستعيشين حكايتها واقعًا، وتلتقينَ بأبطالها عن قرب، وتلكَ هبةٌ لا يحسُّ بها من شيدوا «قوقعةً» تحولُ دونَ الكتاب، ستقفينَ كثيرًا «تحتَ الجِسْر» مع بنتِ الشاطئ، وتسمعينَ «مقالتها في الإنسان»، وبخشوعٍ تُصغين لـ: «قصةِ الاسم الأعظم». وستعرفينَ منه حكاية «الفردوس المفقود»؛ من نافذة «ثلاثيةٍ شهيرة» سطَّرت وجعَ الأندلسِ المستديم، وقصة «الهروبِ إلى الحرية»، و«قصة عقل».

ستلفحكِ الأيام بـ «رياح التغيير» التي سَطَّرها يراعُ الشامي، أمَّا «اليمن الكبير» و«ذكرياتُ» (الأرياني) و(الأحمر) و(المقبلي) و(العيني) فتاريخٌ يُروى ولا يُطوى، وستسيرينَ معه خطوةً خطوة مع الطبيبة الفرنسية التي قالت: «كنتُ طبيبةً في اليمن»، لتُبصري «اليمنَ ذلكَ المجهول»، و«المعلوم»، وأنه «جوهرةٌ في يدِ فَحَّامٍ».

وستحفظينَ من زوجكِ القارئ عبارتَه الشهيرة: «شكرًا أيُّها الأعداء»، وتقفينَ على قصةِ «اغتيال الربيع» المريعة، وستغرقينَ بخشوعٍ وتبتلٍ في دروبِ المعية، «مع الله»، و«المصطفى»، و«العلم»، و«الفقهاء»، وسيروي لك قصة السجال المحتدم بين «من هنا نبدأ»، و«من هنا نعلم»، لتدركي أنكِ امرأةٌ محظوظةٌ برجلٍ يَعرفُ قيمةَ الكتابِ، ويَعَيْشُ الحياة بكلِّ لذائذها المتمثلة بالقراءة والمطالعة والعيش في ظلالهما..

وإذا ما أغضبكِ في لحظة ما، قال لكِ: «فلتغفري»؛ لأنه لا يفتأ يقولُ لكِ: «لأنني أحبكِ» و«أنتِ حبيبتي» بسببِ رشْفِه اللا منقطع من «موسوعة الحب».



مع الكتاب

(1) عندما تكونُ في المكتبةِ بمفردكَ ممتزجًا مع الكتبِ في حالةِ توحدٍ تامٍّ، يُخيلُ إليكَ أنكَ تسمعُ أصواتًا تناديك، بعددِ الكتبِ النائمةِ بجانبك، تسمعُ أصواتًا لقدماءَ ومعاصرينَ، لأدباءَ وشعراءَ، ولمفكرينَ وفلاسفةٍ وفقهاءَ، يتهادى إليكَ صوتُ (الرازي) و(الغزالي) و(ابن تيمية) و(ابنُ إدريس) و(ابن حزم) و(المتنبي) و(أبي حيان) و(الشوكاني)، وأصواتُ (العقادِ) و(الرافعي) و(ابن باديس) و(شاكر) و(إقبال) و(أبي بنان) يتحدثونَ إليك، ويؤنسونَ خلوتك، ويقدمونَ إليكَ ما فاضَ به الوجدان، وسالَ به المداد، وتغنت به الركبان.. تسمعُ وقعَ معارِكِهِمُ الفكريةِ، فغبارها أحبُّ مِن نفحِ الطيبِ وشذى الرياحين.

(2) حُبُّ الكتابِ والعيشِ معه ثقافة لابدَّ أَنْ تُزرعَ في الشخصِ منذُ صغرِهِ كواجبٍ مُقدّسٍ لا ينبغي التساهلُ فيه.. وهذه



دعوةٌ للأسرِ والقائمينَ على المحاضنِ التربوية والعلمية.
وبدون الكتاب نكونُ لا شيء، وواقعُ أمتنا المريرُ خيرُ شاهدٍ على ذلك، وسنظل أمةً في ركْبِ التخلفِ حتى نُعلي مِنْ شأنِ الكتابِ ودوره.

(3) مِنْ أجملِ اللحظاتِ التي يعيشها (القارئ) عندما يقفُ فجأةً على كتابٍ أو مخطوطٍ مضتْ سنواتٌ للبحثِ عنه.

(4) الكتابُ الذي يُثير عاصفةً في ذهنكَ مِنَ التساؤلاتِ والأفكارِ؛ هو الكتابُ الذي يستحق أَنْ تعودَ إليه ما بينَ حينٍ وآخرَ.

(5) مِنَ الكتبِ التي كانت في مكتبتي منذُ سنواتٍ ولم أطلع عليه بسببِ تحاملي الشديد على مؤلفه قبل قراءته مِنْ خلالِ شحنٍ سابقٍ؛ كتاب «أولاد حارتنا» للأديب (نجيب محفوظ)..
وبعد أَنْ ذهبت تلكَ الترسبات، فكَّرْتُ بقراءتِهِ، لأقفَ بنفسي على اللغطِ الذي تركه الكتاب بين ذامٍ حدَّ التكفيرِ، ومادحٍ حدَّ التبجيل.

(6) مِنَ المؤسفِ أَنْ تُحرَمَ مِنْ قراءةِ كتابٍ بسببِ تحذيرٍ سمعته من شخص ما، أو لوجودِ خلافٍ مع المؤلفِ.

(7) الكتابُ المُتشبعُ بالأفكارِ القيمة، إمَّا أَنْ يُعززَ لديكَ فكرةً، أو يفتحَ لكَ أُفُقًا جديدًا، أو يخلقَ لك أفكارًا أخرى ما كانتْ لتولَّدَ؛ لولا شرارةُ الحروفِ الثائرة في متنِ الكتاب..



الفهرس

- تقديم الدكتور وليد عبد الماجد كسَّاب 9
- تقديم الأديب سالم المَهَيَّم 13

حُروفي

- الإبداع والألم........................ 19
- حائطُ المبكى 23
- هَبْ لي أملا 25
- الانتصارات الصغيرة........................ 28
- العَتْمَة تَتَّسِع 31
- لحْظَة بكيت 34
- عن الراحلِ الذي يسكُنني 37
- رحلَ وبقيَ الأثر 40
- حسرات 42
- شُعور........................ 44



• عن عامٍ مَضى 46

• فلسفة الرحيل 49

• معركة 51

• ميلاد 53

• أنا وأمي 54

• أنا وهي 57

• شيءٌ من حكايتنا 60

• حكم الرحيل 62

• زمردتي في الفضاء الأزرق 63

• حنين 67

• فتاة المطر 68

• الهروب 71

• صدمة وانتقام 77

• إحساس 85

• ماذا تعني الصورة؟! 87

• شيء من الذكرى 89

• موقف من الزمن الجميل 91

• على ضفاف الذكرى 94

• شيخوخة مبكرة 96

• قرار 98

• الإِلْفُ 99



• الفاتنة................ 101

• أمسية 103

• انتصار 106

• وددتُ لو أني أراكَ في المنام 108

• ثَمِلٌ في الطائرة 110

• شيءٌ من القول 113

شيء عن وطن

• فوضى الألم................ 119

• بثمنٍ بخس 120

• الموت ونحن 122

• مطر مطر................... 124

• المنقذون................... 127

• وفي سبتمبر غادرَ الوطن ولم يعُد بعد! 129

• آلة الخراب 134

• فلماذا يملكونَ رقابنا؟! 136

• الجواز الأسود................ 138

• عن الإنسانِ أبحث 140

• ليالي الظلم 143

• رحلتنا مع الآلام طالت............. 146

• صنائع المعروف 148



- توثيق الضعف الإنساني........................ 151
- محشر الأضداد.................................. 154
- قذارة الحروب.................................. 156
- قبسٌ من مدينتي!............................... 157
- بين (الحالمة) و(إب) 159

شيء عن القراءة والكتاب

- رحلة الخلق 167
- الفكرة 168
- قدسية الحرفِ والكلمة 170
- الكتابُ طوقُ النجاةِ............................. 172
- الكتابُ والحياة................................. 174
- مكتبتي... 176
- قطعةٌ من نفْسي 179
- سفينة وطوفان! 182
- في معرض الكتاب.............................. 183
- إعادةُ النظر في التراث......................... 185
- عن الأدباء 187
- الصعودُ على أكتافِ العمالقة................... 189
- حيلة كاتب..................................... 191
- صاحب الرسالة................................. 192



- رسالة الزيات 196
- ألم الفقد 199
- باكثير وأدب التاريخ 201
- على الجسر 203
- تأملات في الإنسان 207
- سجن العمر 210
- شهوة البدايات 212
- ماذا علمتني الحياة 214
- القوقعة 217
- ألف شمس ساطعة 219
- رحيلٌ صامت 222
- أيامٌ في اليمن 224
- حكاياتُ مدنٍ بينَ الهامشِ والمتن 226
- الكتاب اليمني 228
- تزوّجي بِرجلٍ يقرأ!! 230
- مع الكتاب 233
- الفهرس 235

مرتْ بي لحظات تقْطرُ ألمًا؛ ففررتُ منها للقراءةِ والقلم، ولا أذكرُ أني قرأتُ في حياتي أكثرَ مما قرأتُ في تلكَ الأيامِ القاسية، ولا أذكرُ أني كتبتُ أجملَ ممَّا كتبتُه في تلكَ الأيام.

ولقد اعتذرَ صديقي - مرةً - لعدمِ قدرته على الكتابةِ؛ بسببِ الأوجاعِ التي يمرُّ بها الوطنُ المنحدرُ إلى الهاوية، بسببِ الألمِ الذي يطوقه، الألم الذي شتَّتَ الحياةَ ولم يترك بها شيئًا جميلًا..

لكنني أعتقدُ أنَّ الآلامَ هي الباعثُ على إخراجِ المكنون، هي اليدُ التي تهزُّ جذعَ الخواطرِ فتُسقِطُ حروفًا مُلتهبة،هي الوقودُ الذي يُشعِلُ الإبداع المدفون في ركامِ النفس، وتحملُ القلمَ على البوحِ؛ ليقترنَ التاريخُ بالمسطورِ بزفرةِ الآلام، ودونكَ أعمالَ الكبارِ التي خلَّدها تاريخُ الأدب، شاهدة على ذلك!

من مقدِّمة المؤلِّف



تونس

فرع رادس: 1 نهج الحبيب ثامر - رادس - 2040
الهاتف: 00216.28.823.371
فرع تونس: 12 نهج السبخة - باب الجزيرة - 1000
الهاتف: 00216.25.001.495
الجمهورية التونسية
الهاتف العام: 00216.25.953.466
البريد الإلكتروني: dar.maziri@gmail.com

